العقل

من سلسلة متعة العلم

د.غفار محمد

العقل ...

الإهداء :

إلى كل مشكّك بإمكانياته ، أنت تملك

كنزاً عظيماً فوق جسدك لا تظلم نفسك و

تهمله ، فيك انطوى العالم الأكبر ..

العقل ...

" الأنوار الإلهية تتدرج و أقربها للإنسان نور العقل ."

السهروردي

العقل ...

محتوى الكتاب

- رحلة داخل الدماغ
  - العقل بين تلافيف التاريخ
- سافانت
  - الحاسوب الأعظم
- العقل الكوني
  - العقل الباطن
- العقل من منظور الشعوب
  - ملك على عرش عظمي
- العقل في عالم الفن

العقل ...

رحلة داخل

الدماغ

في أعماق الجمجمة، يقبع الدماغ البشري وحيداً محتضناً عالماً من الأسرار، متاهة من الغموض تتلوّن بالفكر والشعور والإبداع. هو ذلك القائد الصامت للجسد، الملك الذي لا يُرى، لكنه يحرك كل خيط من خيوط الحياة؛ فينبض القلب، وتتنفس الرئة، ويبتسم الوجه، دون أن يرف له جفن. كل فكرة تتولد فيه كوميض برق، وكل حلم ينمو كزهرة ليلية في صمت العدم، وكل شعور يسكنه كنسيم لا يراه أحد لكنه يشعر به القلب.

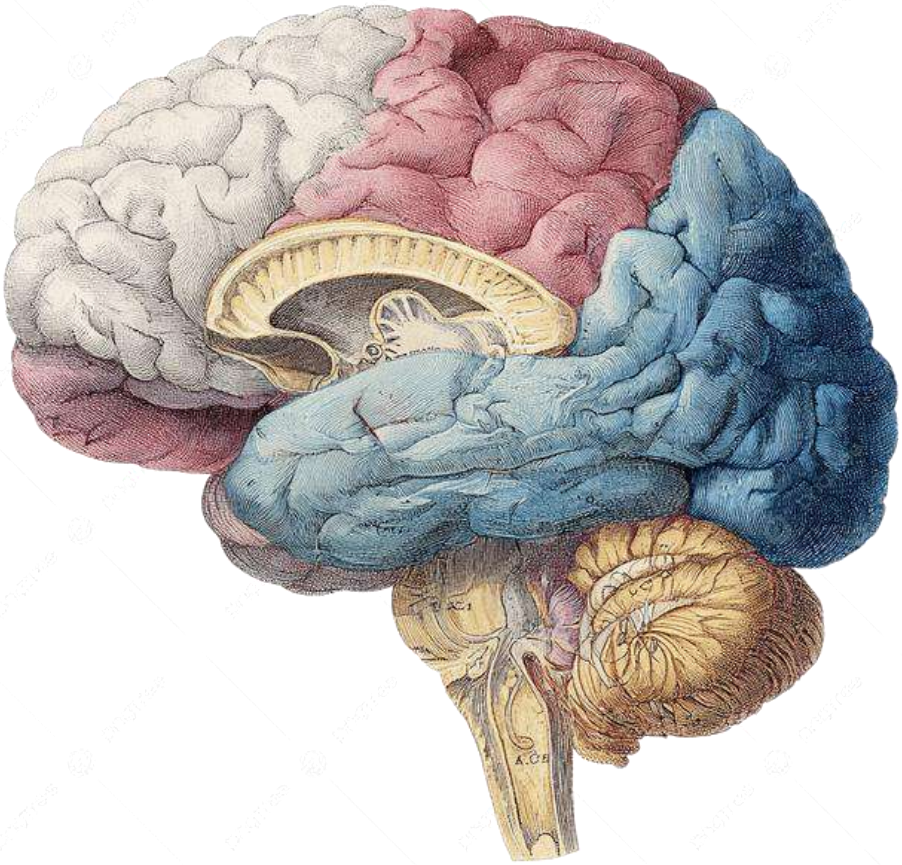

الدماغ ليس مجرد عضو؛ إنه مسرح تتراقص فيه الذكريات والخيالات، حيث ينسج العقل والوجدان نسيجاً من المعاني، ويرسم المستقبل بخيوط الماضي. في طياته تتلاقى المعرفة مع الحدس، والحكمة مع الغرابة، في صمت ساحر يشبه الموسيقى التي يسمعها كل منا بلا أن يدرك مصدرها. كل خلية عصبية فيه كنجمة صغيرة في مجرة لا متناهية، وكل رابط بينها كجسر بين عالمين؛ عالم محسوس وعالم متخيل، عالمنا اليومي وعالم الأحلام.

هكذا، يبقى الدماغ البشري أعظم لغز عرفه الإنسان : آلة بيولوجية ، وروح فكرية، وسحر خفي، يجمع بين الحقيقة والخيال، بين العقل والروح، بين ما نعرف وما لن نعرف أبداً. **هو المكان الذي يولد فيه الإنسان نفسه كل صباح، ويعيد اختراع العالم في كل لحظة يقظة.**

القشرة المخية – سيمفونية الوعي و مسرح الفكر والإحساس

تحت قبة العظام البيضاء، تتربّع القشرة المخية كملكة حكيمة على عرش العقل والجسد، مصممة بدقة ساحرة تجمع بين الفن والعلم، بين الغموض والوضوح. هذه الطبقة الرقيقة، التي لا يتعدى سمكها بضعة مليمترات، تحوي بين طياتها ملايين الخلايا العصبية، كأنها غابة مترامية الأطراف من الضوء والكهرباء، حيث تنشأ كل أفكارنا، وتنتهي كل حركاتنا، وتولد المشاعر، وتتموج الأحاسيس. القشرة المخية ليست مجرد طبقة بيولوجية؛ إنها مسرح الحياة الداخلية، ومرآة الإدراك، وموطن الوعي الإنساني.

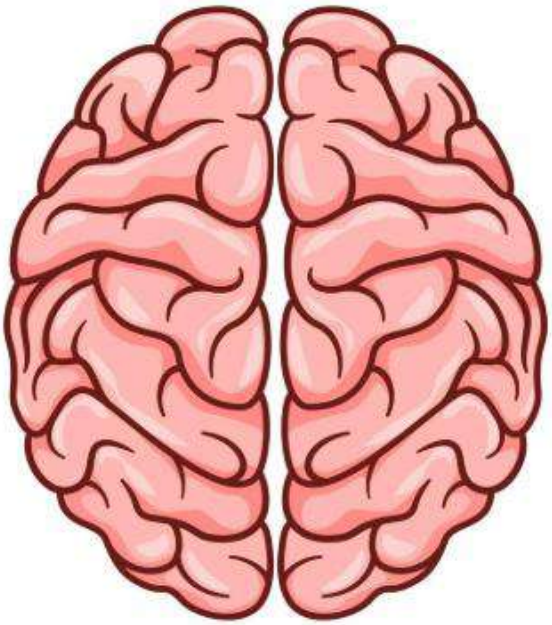

تنقسم هذه القشرة إلى نصفين متوازيين، نصف أيمن ونصف أيسر،

متشابكين في تناغم و يربطهما معاً **الجسم الثفني**، كل منهما مختصٌ بجانب من وظائف الجسد،

كل منهما يحفظ أسرار التفكير والإبداع بطرق متفردة. وداخل هذه المساحة الشاسعة تتوزع الفصوص الأربع التي تشكل عالمًا منظمًا كما لو كانت مقسمة إلى غرف لكل نوع من النشاط العقلي.

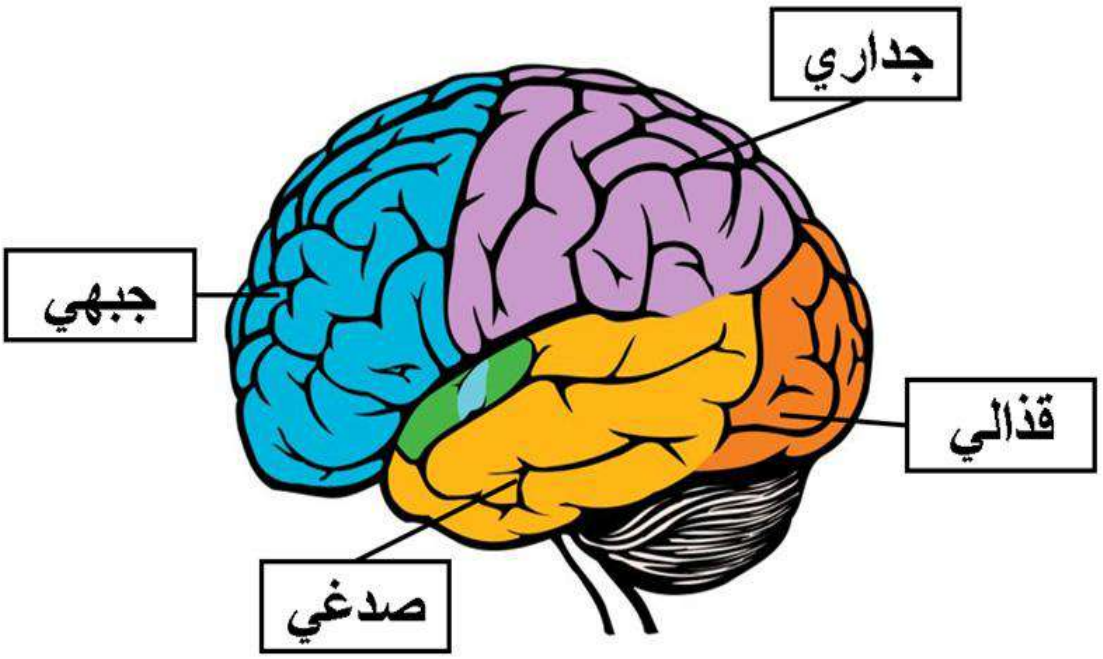

الفص الجبهي، هذا الحارس الأعلى للقرارات، هو مملكة التخطيط والتفكير المجرد والإرادة؛ هو المسؤول عن كل حركة مقصودة، عن كل كلمة منطقية، عن كل فكرة تسبق وعينا. و هنا في الجبهة، تُدار أيضاً الأوامر الحركية عبر القشرة الحركية، التي تمتد على طول الشق المركزي، كمعبر دقيق يرسل إشارات كهربائية عبر النخاع الشوكي لتنفذ كل إيماءة، من أبسط رفع لليد إلى أعقد رقصة. إذن وظيفته الأساسية (**التفكير العقلاني و الحركة**)

بالقرب منه، يمتد **الفص الجداري**، حيث تعيش الأحاسيس في مجدها الرفيع، فتُفسّر اللمسات والحرارة والبرودة والضغط، وتترجم المعلومات الحسية القادمة من كل أطراف الجسم. هذا الفص هو مركز القشرة الحسية، حيث تتحول الإشارات الكهربائية

الباردة القادمة من الجلد أو العضلات إلى شعور ملموس، إلى إدراك يربط بين الذات والعالم الخارجي. إنه المكان الذي تشعر فيه بسطوع الشمس على بشرتك، أو برفق لمسة محب على يدك.

إذن وظيفته الأساسية (**الإحساس**) .

أما **الفص الصدغي**، فهو المكتبة الحية للذاكرة والأصوات والموسيقى والكلمات. هنا تنحت الأصوات إلى لغة، وتتراقص الذكريات في طيفٍ متقن، ويختزن الماضي ليشكل حاضرنا ومستقبلنا. في هذا الفص تنبثق القدرة تحليل الأصوات المعقدة التي تهمس لنا بالعالم من حولنا. إنه المسرح حيث تتحول الموجات الصوتية إلى معنى وفهم، حيث يتشابك السمع بالذاكرة في رقصة أبديّة. إذن وظيفته الأساسية (**الذاكرة و السمع**)

وفي الخلفية ، يقبع **الفص القذالي**، ذلك المعقل الملكي للبصر والإدراك المرئي، حيث تتحول الصور القادمة من العين إلى مشاهد، حيث يلتقط الضوء ليصبح شكلًا ولونًا وحركة، حيث تُبنى العوالم أمام أعيننا من دون أن نشعر بآلية هذه المعجزة. هنا تتفكك التفاصيل وتُعاد تركيبها لتصبح إدراكًا كاملاً للعالم، لتصبح القراءة والكتابة والفن مرآة لعقولنا. إذن وظيفته الأساسية (**الرؤية**) .

لكن القشرة المخية ليست مجرد مجموعة فصوص مستقلة؛ إنها شبكة معقدة من الاتصالات، **كل فص يتحدث مع الآخر بلغة الكهرباء والكيمياء**، بحيث تتحرك الإشارات بلا توقف، وتختلط الوظائف الحسية مع الحركية، والفكر مع المشاعر. فهي تدمج حركة اليد مع إدراك شكل الشيء، وتجعل سماع الموسيقى يثير ذكريات وعواطف، وتحوّل صورة مرئية إلى إدراك مكاني وحركي. وهكذا، كل تجربة إنسانية، مهما كانت بسيطة أو معقدة، تمر عبر هذه القشرة، لتصبح وعياً، لتصبح قرارًا، لتصبح شعورًا أو حركة.

إن دراسة القشرة المخية تجعلنا ندرك كم نحن رائعون ومتشابكون،

كم أن كل لحظة وعي، وكل حركة بسيطة، وكل إحساس أو فكرة هي نتيجة هذا النسيج المتقن من الخلايا العصبية والفصوص المتداخلة. هي قلب العقل النابض، وعقل الجسد، والمرآة التي تعكس الذات إلى العالم، والفن الذي ينسجنا نحن البشر في قصة الحياة اليومية. إن القشرة المخية ليست مجرد نسيج؛ **إنها أرقى أشكال الهندسة في الطبيعة، حيث تتجلى فيه الحرية، والإبداع، والإدراك، والحركة، في سيمفونية واحدة متكاملة، لا تنتهي ولا تتوقف.**

الدماغ المتوسط – بوابة الحركة والانتباه

يقع الدماغ المتوسط بين المخ الأعلى و جذع الدماغ ، وهو مثل بوابة صغيرة تتحكم في تدفق المعلومات الحسية والحركة الدقيقة.

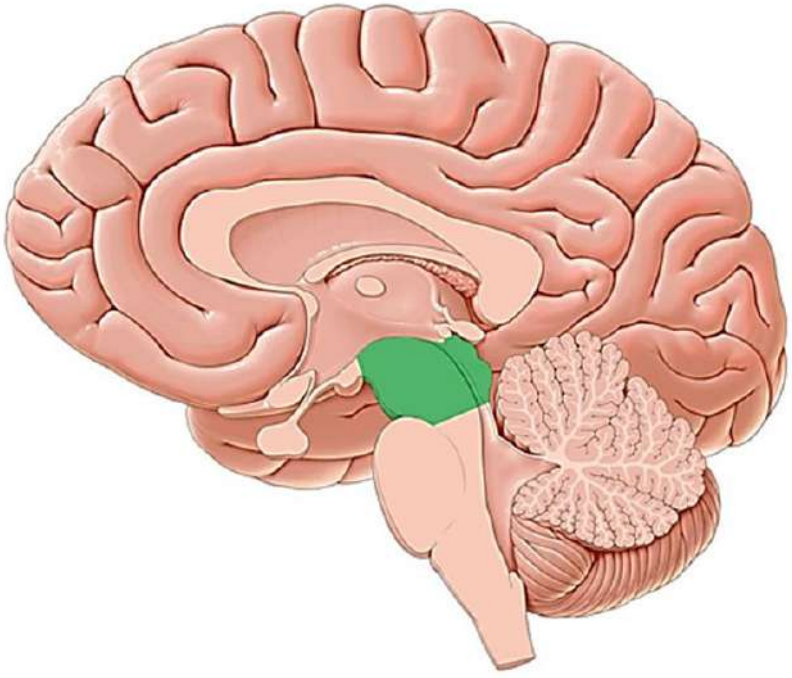

وظائفه الأساسية :

◉ **تنسيق الحركة البصرية والسمعية** :

مثال : عندما تتبع عينيك كرة طائرة أثناء المباراة، الدماغ المتوسط يوجّه العينين والرقبة لتتبع الحركة بدقة.

◉ **الاستجابة السريعة للمنبهات** :

مثال : إذا سمعت صوت سيارة تقترب بسرعة، الدماغ المتوسط يرسل أوامر للعضلات لتتحرك بعيدًا قبل أن تشعر بالتهديد بالكامل.

◉ **تنظيم الانتباه** :

مثال : أثناء قراءة كتاب في مقهى مزدحم، الدماغ المتوسط يساعدك على التركيز على الكلمات وتجاهل الضوضاء المحيطة.

الجسر (Pons) – قائد التنسيق والتنفس

يمتد الجسر بين الدماغ المتوسط و البصلة و المخيخ، كجسر حقيقي يربط إشارات المخ بالمخيخ ويضمن تناغم الحركة والتنفس.

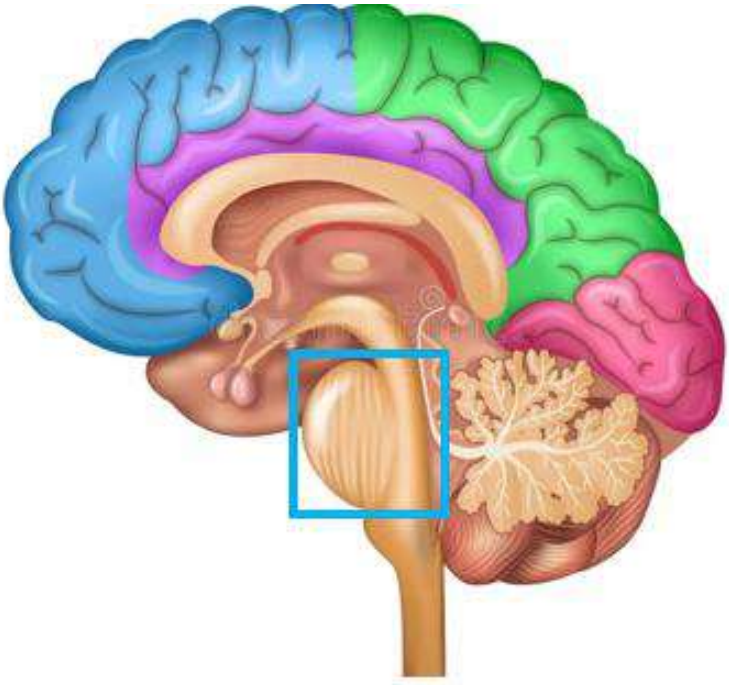

وظائفه الأساسية :

◉ **ربط المخ بالمخيخ لتنسيق الحركة** :

مثال : أثناء ركوب الدراجة، ينسق الجسر بين عضلات الأرجل وعينيك لضمان توازن سلس.

◉ **المساهمة في التحكم بالتنفس التلقائي** :

مثال : أثناء النوم، يرسل الجسر إشارات للحفاظ على إيقاع التنفس المنتظم.

◉ **تنظيم النوم والحلم** :

مثال : خلال مرحلة نوم الريم REM، الجسر يساعد على إرسال إشارات تؤدي إلى أحلام متحركة ومعقدة.

البصلة السيسائية – حارس الحياة الصامت

تقع البصلة عند قاعدة الدماغ، متصلة بالحبل الشوكي، وهي المسؤولة عن كل ما يبقي الحياة مستمرة دون وعي.

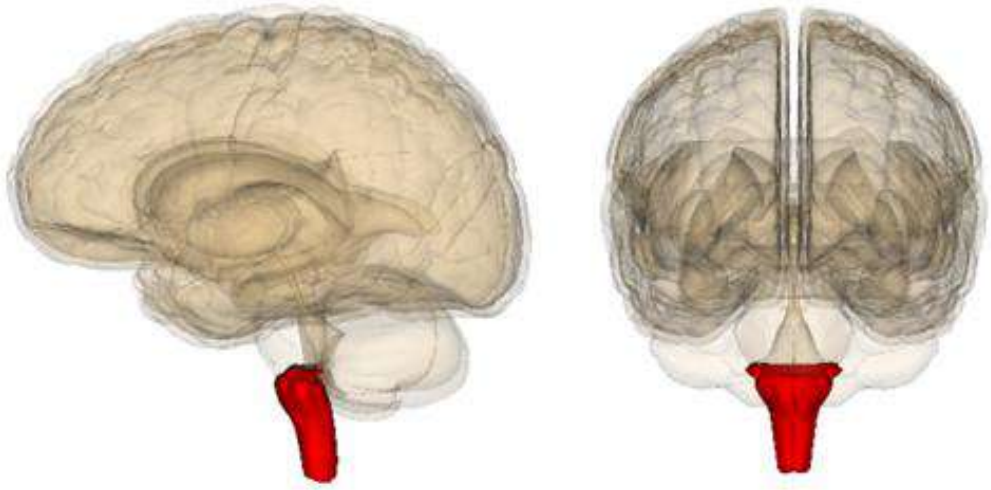

وظائفها الأساسية :

◉ **ضربات القلب وضغط الدم** :

مثال : قلبك يستمر في الخفقان بثبات حتى أثناء النوم العميق، بفضل البصلة.

◉ **التنفس التلقائي** :

مثال : دون التفكير، تتنفس آلاف المرات يوميًا، سواء كنت تركض أم تستلقي.

◉ **الانعكاسات اللاواعية** :

مثال : عند ابتلاعك طعامًا، البلع يتم تلقائيًا، أو عند العطس استجابة للمنبهات المفاجئة.

المخيخ – شاعر التوازن والدقة

يقع المخيخ خلف جذع الدماغ، وهو الفنان الذي يجعل كل حركة سلسة ومتقنة.

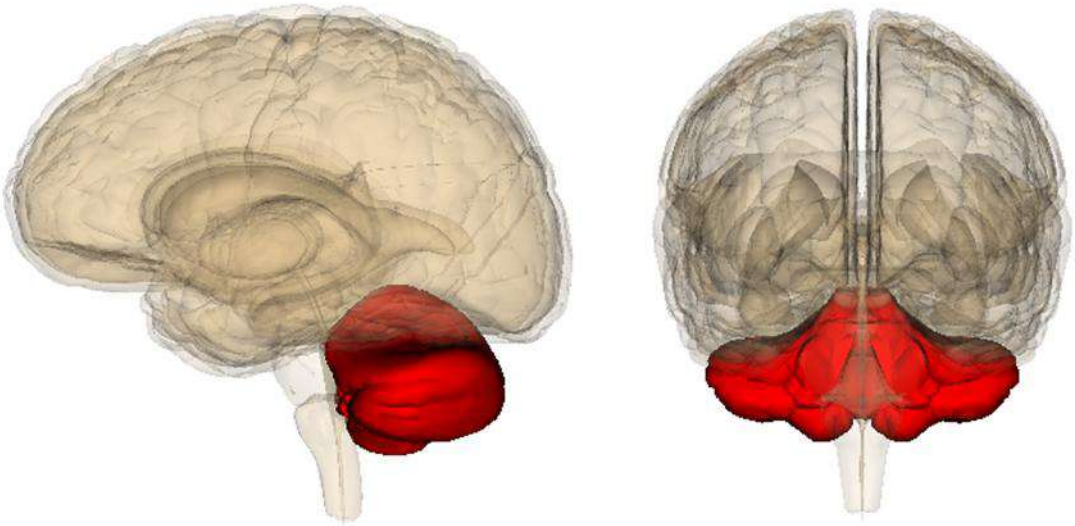

وظائفه الأساسية :

◉ **حفظ التوازن** :

مثال : أثناء المشي على حافة الرصيف، المخيخ يمنعك من السقوط.

◉ **تنسيق العضلات للحركات الدقيقة** :

مثال : عندما تكتب بخط جميل أو تعزف على البيانو، المخيخ ينسق كل حركة صغيرة.

◉ **تعلم الحركات الجديدة** :

مثال : عند تعلم رقص جديد، المخيخ يحفظ الحركات تدريجيًا حتى

تصبح طبيعية تنفذها بلا وعي.

المهاد (Thalamus) – **بوابة الحواس وتنظيم الإشارات**

يقع المهاد في مركز الدماغ، ويعمل كمرشد يوجه الإشارات الحسية إلى أماكنها الصحيحة في القشرة المخية للفص الجداري .

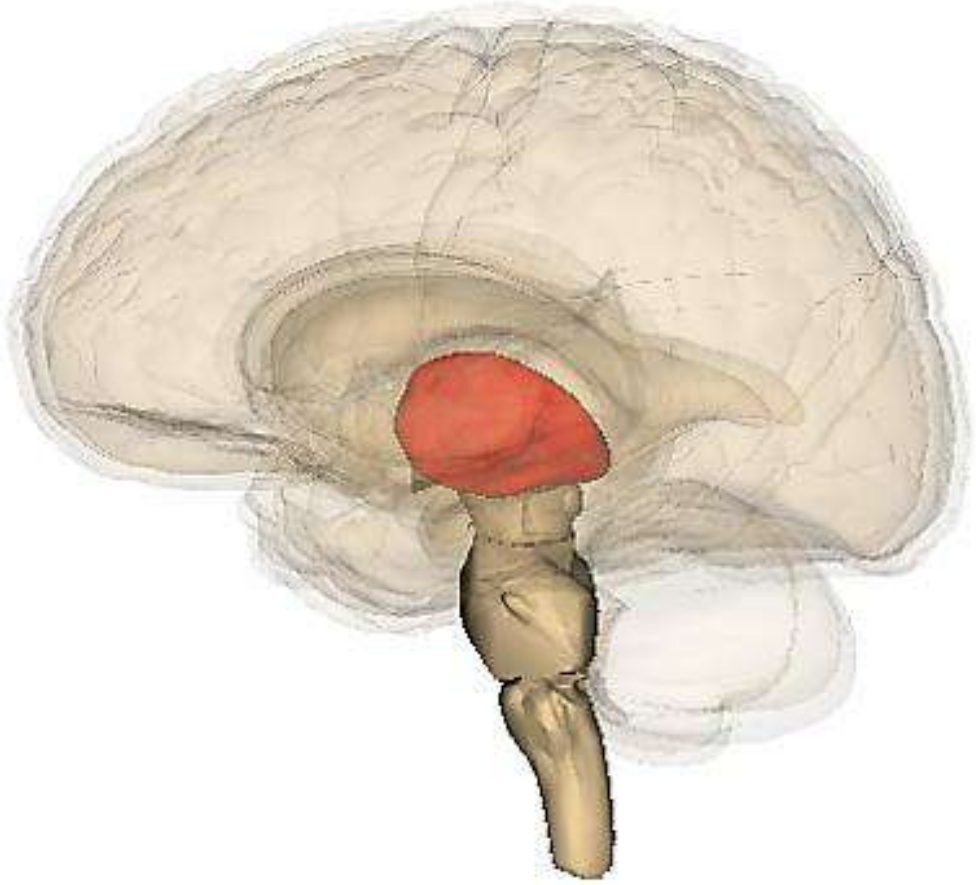

وظائفه الأساسية :

◉ **نقل المعلومات الحسية** :

مثال : عندما تلمس كوبًا ساخنًا، المهاد يرسل الإشارة للقشرة المخية لتبعد يدك بسرعة.

◉ **تنظيم ما يصل إلى وعيك** :

مثال : أثناء الحفلة، يتيح لك التركيز على الموسيقى ويخفض الإزعاج الناتج عن الضوضاء المحيطة.

◉ **التكامل بين الحواس المختلفة** :

مثال : عند تناول الطعام، المهاد يدمج الرؤية والطعم والرائحة لتجربة حسية كاملة.

الوطاء (Hypothalamus) – **حارس التوازن الداخلي**

يقع أسفل المهاد، وهو المنسق الخفي لكل العمليات الحيوية.

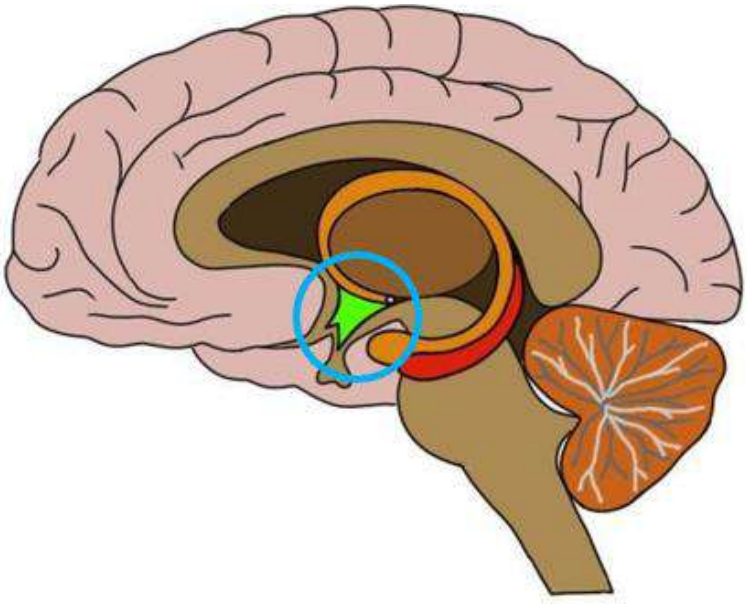

وظائفه الأساسية :

◉ **تنظيم درجة حرارة الجسم** :

مثال : عند الركض في الشمس، الوطاء يزيد إفراز العرق لتبريد الجسم.

◉ **تنظيم العطش والجوع** :

مثال : يشعرك بالعطش بعد رياضة شديدة، ويحثك على شرب الماء.

◉ **تنظيم النوم والهرمونات** :

مثال : عند حلول الليل، يرسل إشارات للنوم ويضبط إفراز هرمونات النمو والإجهاد.

النوى القاعدية (Basal Ganglia) – مبدع الحركة والعادات

توجد في أعماق الدماغ، وتتحكم في تحويل الأفكار إلى أفعال ملموسة.

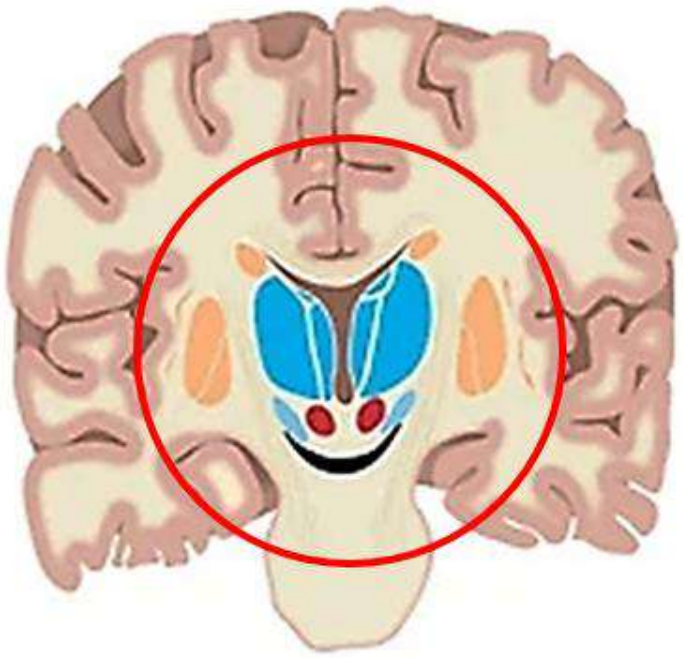

وظائفها الأساسية :

◉ **تنظيم بدء الحركة** :

مثال : عندما تقرر النهوض لممارسة الرياضة، النوى القاعدية تساعد على بدء الحركة بسلاسة.

◉ **تنظيم تسلسل الحركات** :

مثال : أثناء الكتابة أو الطباعة، تتحكم النوى القاعدية في ترتيب الحركات الدقيقة للأصابع.

◉ **تكوين العادات والمهارات** :

مثال : بعد ممارسة العزف يوميًا، تصبح الحركة طبيعية دون جهد واعي.

الجهاز الحوفي – قصر العواطف وذاكرة الروح

في أعماق الدماغ، تحت القشرة المخية، يوجد عالم **يربط بين العقل والعاطفة والذاكرة**، إنه الجهاز الحوفي، الذي يحمل مفاتيح شعورنا، وعوالمنا الداخلية، وتجاربنا الحياتية، ويحوّل كل لحظة من إدراكنا إلى تجربة عاطفية متكاملة. هذا الجهاز ليس مجرد أعضاء منفصلة، بل شبكة مترابطة تعمل بتناسق ساحر، تجعلنا نحب، نخاف، نتذكر، ونتعلم من حياتنا .

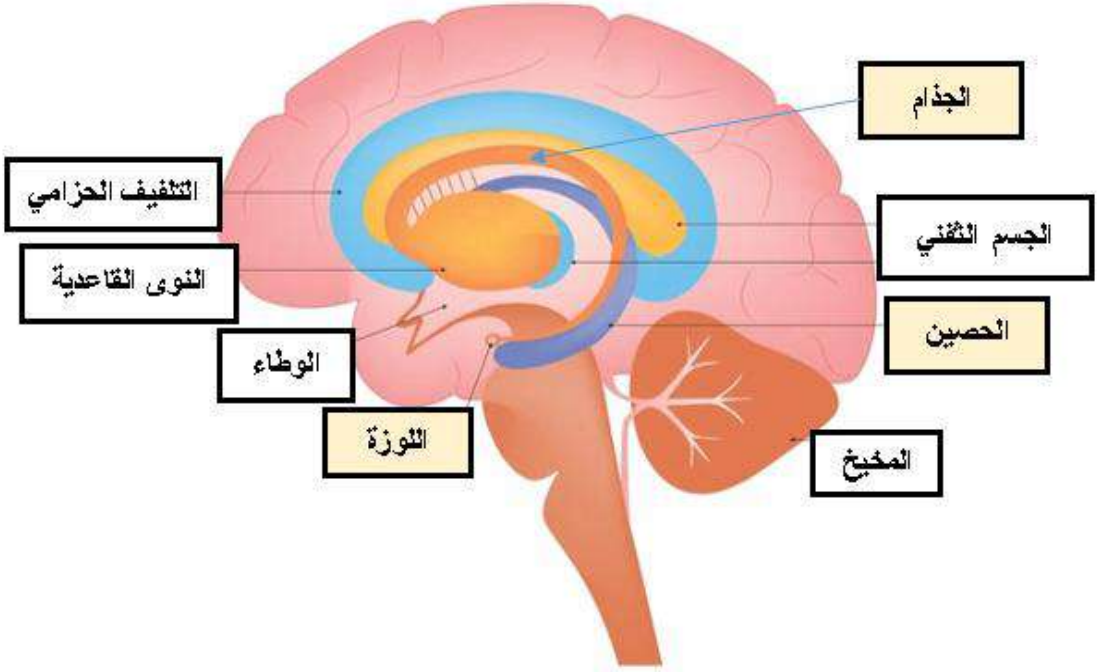

يتألف الجهاز الحوفي من **الحصين و اللوزة و القشرة الحوفية و المهاد الأمامي و الجذام** ، لنتحدث عن أهم وظائفها :

❁ الحصين (Hippocampus) – كاتب الذكريات

يقع الحصين في عمق الفص الصدغي للدماغ، وهو الكاتب الصامت لتجاربنا اليومية وذاكرتنا الطويلة والقصيرة.

وظيفته الأساسية هي تخزين واسترجاع الذكريات، وربطها بالسياق المكاني والزماني. عندما تزور مكانًا لأول مرة، يقوم

الحصين بتسجيل تفاصيل المشهد، الأصوات، الروائح، وحتى الأحاسيس المصاحبة، ليصبح كل ذلك ذاكرة يمكن العودة إليها لاحقًا.

مثال : عندما تتذكر رائحة خبز الطفولة في بيت جدتك، يكون الحصين قد حفظ كل التفاصيل : المكان، الرائحة، شعورك بالحنين، ويعيدها إليك بدقة مذهلة.

❁ **اللوزة الدماغية** (Amygdala) – **شعلة العاطفة**

تقع اللوزة الدماغية أمام الحصين، وهي مركز العواطف الأولية، مثل **الخوف، الغضب، والسعادة**.

تعمل هذه البنية الصغيرة على تقييم المنبهات بسرعة، وتحديد مدى خطورتها، أو جمالها، وإرسال إشارات للجسم للاستجابة الملائمة.

مثال : إذا اقترب منك كلب غريب بسرعة، اللوزة الدماغية تنبه جسدك للخطر، فتشعر بتسارع ضربات قلبك، وتستعد للهرب أو الدفاع عن نفسك، قبل أن تدرك عقلك السبب.

❁ **الجُذام** (Fornix) – **جسر التواصل الداخلي**

الجذام هو حزمة من الألياف العصبية تربط الحصين وبقية أجزاء الجهاز الحوفي، ويعمل كجسر لنقل المعلومات بين العاطفة والذاكرة والسلوك.

وظيفته الأساسية هي تسهيل التواصل بين مختلف مكونات الجهاز الحوفي لضمان انسجام العاطفة والذاكرة والتصرف.

مثال : عندما تسمع أغنية تذكرك بحادثة سعيدة، الجذام يضمن انتقال المعلومات بين الحصين واللوزة الدماغية والقشرة الحوفية، لتسترجع المشاعر والذكريات بشكل متكامل.

إذن فكل جزء من الدماغ كما رأينا ليس مجرد كتلة من نسيج، بل شاعر ومهندس ومرشد وصانع قرار، يعمل في شبكة مترابطة لتنسيق حياتنا، حواسنا، وحركاتنا، وجعل كل لحظة تجربة متكاملة و فريدة .

العقل بين

تلافيف التاريخ

قبل أن يسأل الإنسان : كيف أعيش؟

وقبل أن يخترع النار، أو يروّض الحيوان، أو يرسم ظله على جدار كهف ..

سأل ـــ دون أن يعرف أنه يسأل ـــ : من أنا ؟

كان العقل هو اللغز الأول، والدماغ هو المعبد الخفي الذي لم يُرَ،

وكان الوعي نارًا مشتعلة بلا اسم، تسكن جسدًا لم يفهم بعد أنه جسد.

هذا الفصل ليس تاريخًا علميًا فحسب ..

بل سيرة طويلة لمحاولة الإنسان أن يفهم عقله.

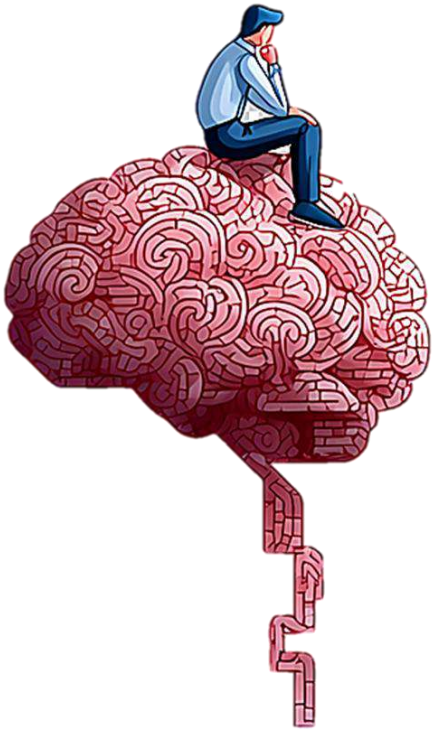

إنسان الكهف ـــ حين كان العقل روحاً هائمة

في فجر الإنسانية، لم يكن العقل فكرة، بل قوة غامضة.

الإنسان البدائي لم يفرّق بين التفكير والروح، بين الخوف والإله، بين الحلم والواقع.

الصرع كان مسًّا شيطانيًا

الأحلام رسائل من الأسلاف

الجنون لعنة أو اصطفاء

الموت انتقال أو فناء

لم يكن الدماغ عضوًا، بل سكنًا للأرواح ..

وكان **ثقب الجمجمة** (Trepanation) — أقدم إجراء جراحي معروف — محاولة لتحرير الأرواح الشريرة من الرأس.

هنا لم يكن العقل داخل الجسد ..

بل الجسد هو الذي كان يسكن عالمًا مسكونًا بالعقل.

الحضارات الأولى — القلب ضد الدماغ

في **مصر القديمة** ، حيث قيس الزمن بالنيل ، آمنوا أن **القلب هو مركز العقل والذاكرة والضمير.**

القلب يُوزن بعد الموت

الدماغ يُرمى أثناء التحنيط

الفكر أخلاقي قبل أن يكون عصبيًا

العقل لم يكن أداة معرفة، بل محكمة أخلاقية.

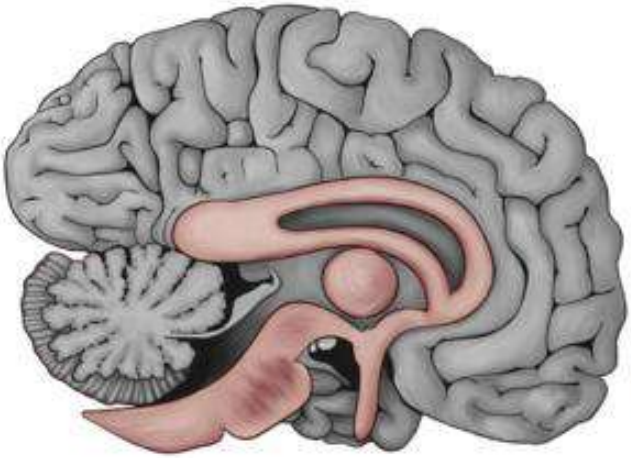

في سومر وبابل ..

العقل لم يكن ملكًا للإنسان، بل إعارة إلهية.

الجنون رسالة

والحكمة نفحة

والإنسان وعاء، لا صانعًا لوعيه

اليونان — ولادة السؤال الفلسفي

هنا، للمرة الأولى، توقف الإنسان عن السؤال : من يملك عقلي؟

وبدأ يسأل : ما هو العقل؟

أبقراط قال جملةً هزّت التاريخ :

(من الدماغ تنبع أفراحنا وأحزاننا، حكمتنا وجنوننا.)

الصرع لم يعد لعنة، بل مرضًا.

و عند **أفلاطون** **العقل هو جوهر خالد ..**

و **الدماغ مجرد مرآة ناقصة.**

أما **أرسطو** فاد بالقلب إلى العرش ..

فالدماغ ـــ برأيه ـــ جهاز تبريد للعواطف !

هكذا وُلد الصراع : **العقل مادة أم معنى؟**

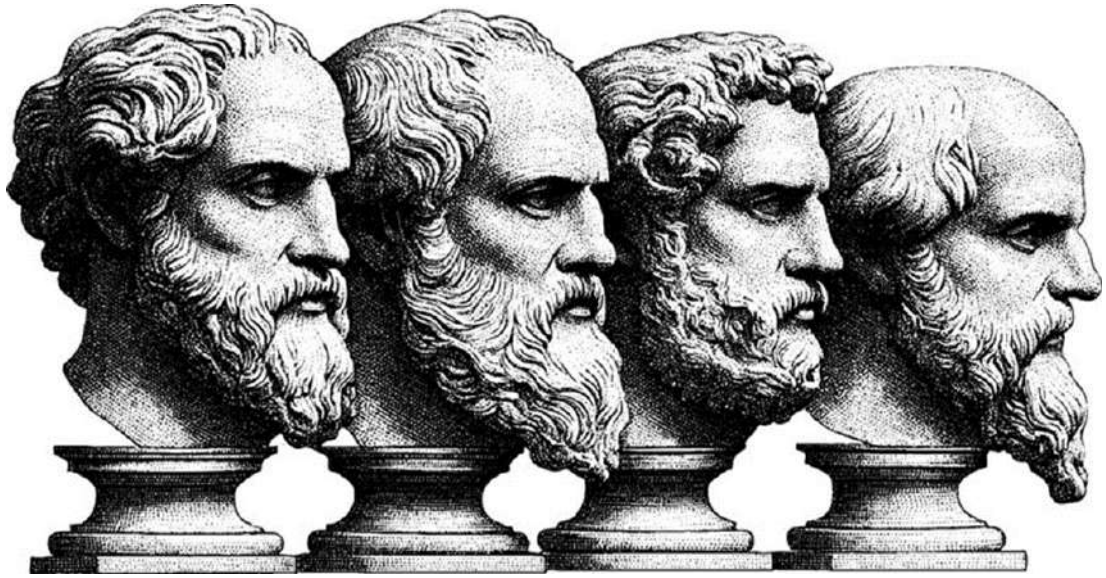

العصور الوسطى ـــ العقل أسير الروح

مع صعود **الأديان التوحيدية**، عاد العقل ليكون تابعًا للروح.

الفكر خادم الإيمان

الدماغ آلة

الجنون اختبار إلهي

لكن في الظل، كان شيء يتخمّر...

العلماء المسلمون أمثال **ابن سينا، الرازي، الزهراوي** ، ميزوا بين الأمراض النفسية والعضوية ، و ربطوا الدماغ بالحواس ، كما تحدثوا عن الذاكرة والتخيل والإدراك ..

العقل هنا لم يُلغَ ولم يُؤلَّه ..

بل فُهم.

عصر النهضة — تشريح الفكر

حين شُرّحت الجثث، تشقق الصمت.

ليوناردو دافنشي رسم الدماغ كما يُرسم الكون : تلافيف، تجاويف، مسارات...

العقل لم يعد فكرة مجردة، بل بنية لها شكل.

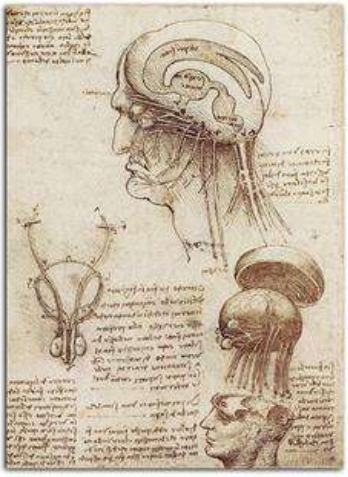

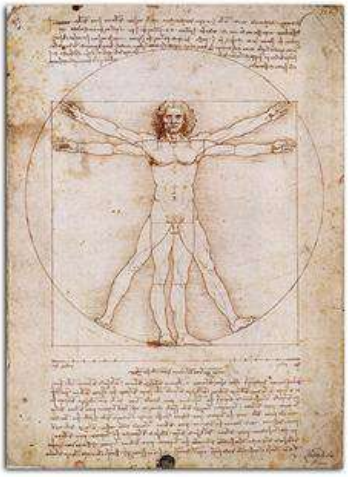

ديكارت قال بثقة :

(أنا أفكر إذن أنا موجود.)

إن غاب العقل غاب الجسد ..

و إن انتهى الجسد غاب العقل ..

وُلدت الثنائية القاتلة : عقل بلا جسد، وجسد بلا عقل

القرن التاسع عشر — الكهرباء تدخل الرأس

هنا تغيّر كل شيء.

جالفاني يكتشف الكهرباء الحيوية

بروكا يربط الكلام بمنطقة دماغية

فِرنيكه يفعل الشيء نفسه للفهم

العقل لم يعد وحدة غامضة، بل وظائف موزعة.

ثم جاء **داروين** ليفترض أن العقل نتاج تطور مزمن .

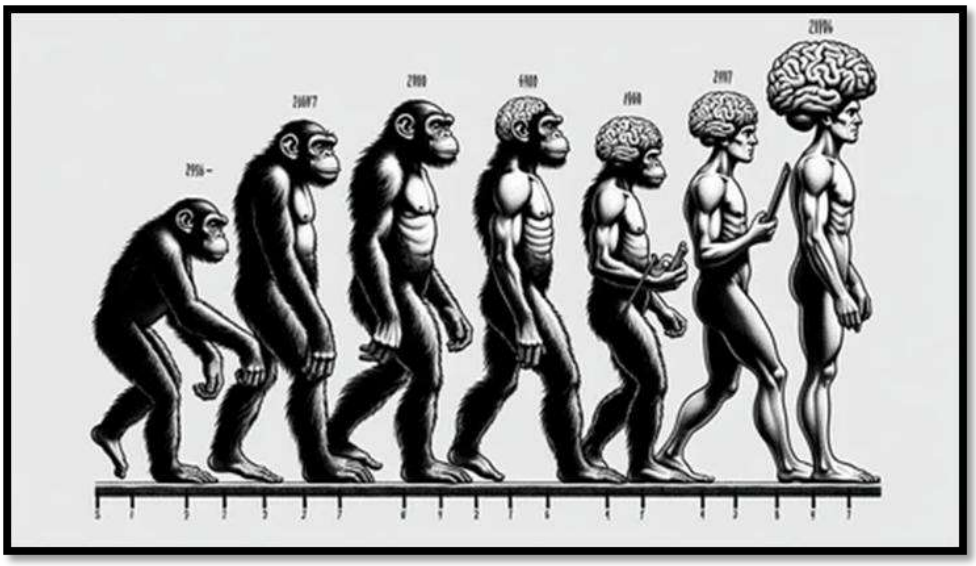

القرن العشرون — العقل ينقسم على نفسه

فرويد افترض أنّ العقل ليس سيدًا في بيته.

تحت السطح **رغبات، صدمات، كبت**.

الفلسفة السلوكية قالت : ما لا يُقاس لا يُدرس.

لكن مع **الثورة المعرفية** عاد العقل ليتسيّد ..

الدماغ حاسوب

والفكر معالجة معلومات

ثم جاءت صور التشخيص الشعاعية :

CT

MRI

f MRI

و رأينا الدماغ وهو يفكر حيًا.

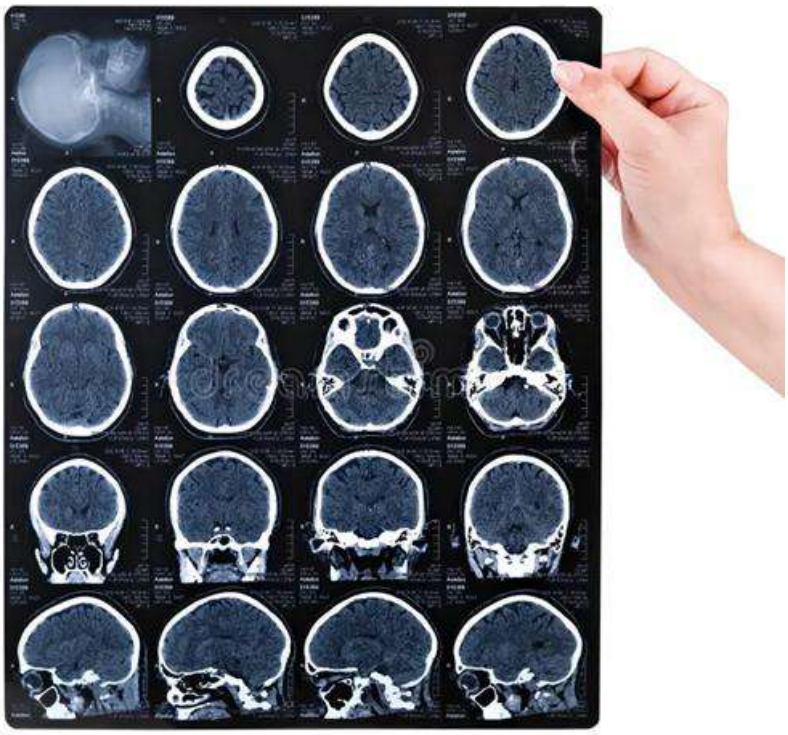

اليوم — حين اقتربنا... وازداد الغموض

نحن الآن نعرف :

بنية الدماغ كاملة ..

عدد الخلايا في الدماغ ..

مساراتها ..

كيمياء المشاعر ..

لكننا لا نعرف : **كيف يولد الوعي ؟ لماذا نشعر ؟ من أين يأتي الإحساس بالذات ؟**

الدماغ بات أعقد من الكون الذي يدرسه.

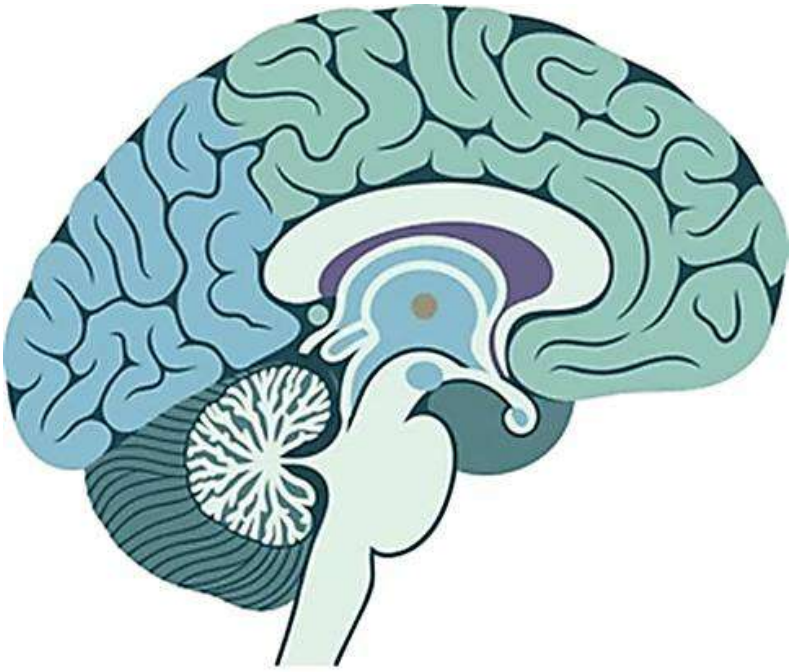

من إنسان الكهف الذي خاف أفكاره ..

إلى إنسان اليوم الذي يصورها ..

لم يتغير السؤال ..

بل تغيرت لغته.

العقل لم يعد روحًا طليقة ..

ولا آلة صماء ..

بل قصة مفتوحة.

وربما... أعظم ما في العقل

أنه الكيان الوحيد الذي يحاول فهم نفسه، بأداته نفسها.

إنه **المرآة**...

و **المتأمل**...

و **اللغز الذي لا يريد أن يُحل بالكامل.**

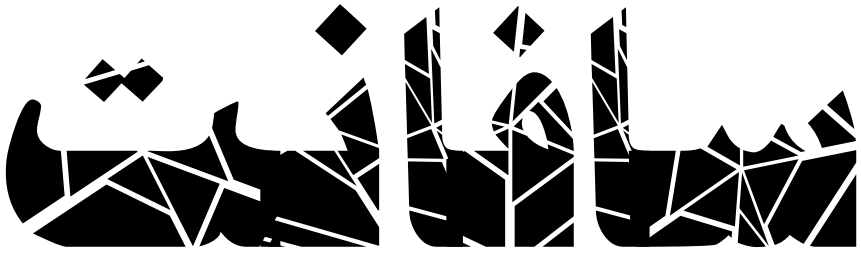
سافانت

في زقاقٍ صغير من أزقة الحياة اليومية، حيث يسير الإنسان بلا تمييز بين الأمواج والشواطئ، يظهر أحياناً شخصٌ يعيد تعريف ما يعنيه أن تكون إنسانًا نابغًا. **جايسون بادجيت**، **بائع أثاث** أمريكي عادي، لم يكن في شبابه يفكر في الأعداد إلا حين كانت تحتمي بين دفتي دفتر المدرسة. لكنه في ليلةٍ قاتمة قضت على عاديته، حين **تعرض لهجومٍ عنيفٍ وأُصيب بكسر في رأسه**، انقلبت رؤيته للعالم رأساً على عقب.

الضربة التي تلقّاها جايسون لم تكن مجرد لحظة ألمٍ ودوار، بل كانت بوابةً عجيبة. عندما استفاق، اكتشف أنه لا يرى الأشياء كما يراها البشر عادةً، بل بدأ يرى الكون كشبكة من الأشكال الهندسية المتداخلة، كأنما كلُّ شيءٍ في الطبيعة مُصاغٌ من لغةٍ رياضيةٍ بديعة. لم يعد ينظر إلى فنجان القهوة الصباحي كوعاءٍ عادي؛ بل رأى فيه لوحةً من الأنماط، دوائر تتداخل، وحدات متكررة بلا نهاية.

هذا التحوّل في الإدراك دفع جايسون إلى أن يفتح دفاتر رسمٍ ويبدأ في رسم ما يراه: دوائر، مثلثات، مركباتٍ هندسية تنسجم كأنها ترانيمٌ كونية. ما يبدو على الورق مجرد خطوطٍ متشابكة، بدا له

هو خريطةً لفهم بنية الزمن والمكان. لقد أصبح حساب الفوضى، الهندسة، وحتى بعض مفاهيم الرياضيات المتقدمة جزءًا من حواسه اليومية.

علمياً، ما حدث مع بادجيت هو أحد أندر الظواهر التي عرفها الطب العصبي، تُسمّى **متلازمة السافانت المكتسبة** : حالة نادرة جدًا يُطلق فيها تلفٌ في الدماغ طاقاتٍ كامنةً غير مستغلة، فتحرر من خلالها قدراتٍ عقلية استثنائية في مجالاتٍ محددة مثل الرياضيات أو الموسيقى أو الرسم. في حالة جايسون، أطلق في داخله فهمًا بصريًا للأعداد ولمفاهيمٍ معقدة كأنها لغةٌ أولى للعالم نفسه، قبل اللغة المنطوقة.. و هناك نوع آخر من المتلازمة نجده عند مرضى التوحد بدون حوادث ، حيث يبدع بعض مرضى التوحد بشكل بارز في مجال محدد من مجالات الحياة ..

كانت هذه القدرة ليست مجرد موهبة فنية، بل تحوّلًا إدراكيًا يعيد سؤال الإنسان عن حدود العقل البشري. ماذا لو أن ما ندّعيه "العادي" ليس سوى قشرةٍ رقيقة تغطي إمكانياتٍ أعمق ؟ ماذا لو أن حادثًا صغيرًا في لحظةٍ ما يمكنه أن يحرر تلك الإمكانيات من قيودها ؟ في كل مرة يرسم فيها بادجيت تركيبة هندسية جديدة، يبدو العالم وكأنما يبوح له بأسرار خفية عن نفسه، كأنما الرياضيات ليست مجرد علم، بل لغة الكون الذي صار يُحاكيه من الداخل.

إن قصة جايسون ليست قصة عبقرية فردٍ فحسب، بل تساؤلٌ فلسفيٌ عميق حول ماهية الإدراك والحقيقة والطبيعة الكامنة للعقل. في كل رقمٍ يرى، وفي كل شكلٍ يرسم، ينبعث سؤالٌ واحد: هل العقل البشري محدود حقًا بما نعتقده؟ أم أننا نملك عمقًا من الإمكانيات لا تظهر إلا حين يتخلّص من خوفه من ذاته؟

****

يدّعي البعض أن البشر اكتشفوا بنية الدماغ البشري و وظائفه بالكامل ، مما يدفعهم للقول بجزم أنّ فكرة استخدام البشر لنسبة **5** % فقط من عقولهم هي محض خرافة .. فهل هذا الكلام صحيح بالفعل ، أم أنه محض مغالطة شائعة بين البشر عن العقل و إمكانياته .. هذا ما سنحاول أنا و أنت عزيزي القارئ أن نكتشفه خلال هذا الفصل بأن نجيب على السؤال الجوهري التالي :

(هل الإنسان بالفعل يستعمل فقط 5 % من

إمكانياته العقلية في أحسن أحواله كحال

العباقرة ؟! أم أنه يستخدمها كلها ؟! أم

أنه يستخدم أقل من هذه النسبة بكثير ؟!)

و سنحاول إنجاز ذلك عبر مقاربة هذه الفكرة الهامة و الحساسة و الشيقة من زاويتين هامتين للغاية :

- **نظرية تدرّج القدرة ..**
- **براهين و أمثلة على القدرات الكامنة للدماغ ..**

فهيا بنا نسبر أغوار العقل البشري في هذا التحدي المثير ..

❁ نظرية تدرج القدرة :

هي نظرية بسيطة للغاية ، لا شك أنك لاحظتها بنفسك في حياتك اليومية عزيزي القارئ .. تخيل أنك تملك مذياعاً صغيراً تستمتع بأنغام الموسيقى عليه ، لكنك تتذمر من أن صوته ضعيف و تقتنع بأن هذا العيب هو في تصميمه ، و في ذات يوم تكتشف بالصدفة زراً مخفياً في الجهاز و عندما تضغط عليه يبدأ الصوت بالارتفاع تدريجياً لتُحل مشكلتك كلياً و تدرك أن العيب كان فيك و ليس في

المذياع ..

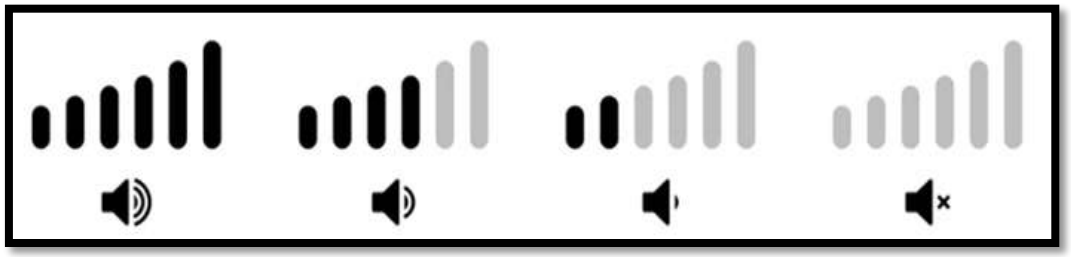

هذا هو بالضبط جوهر نظرية تدرّج القدرة .. هنالك أزرار لكل شيء في الحياة ،عندما تضغط عليها تزداد قدرة الشيء تدريجياً ، من الصوت إلى سطوع الشاشة أو صنبور المياه أو دواسة البنزين في السيارة أو حرارة الفرن الكهربائي أو سرعة دوران المروحة و غيرها .. هكذا تتدرج القدرة في كل شيء ، لكن هل ينطبق ذلك على الدماغ بدوره ، أي هل يمكن زيادة القدرات العقلية تدريجياً بالفعل ، أم أن الإنسان كما يقول البعض يستعمل **100** % من عقله ؟!

للإجابة على هذا السؤال ننتقل إلى المحور الثاني في الفصل ..

❁ براهين على قدرات الدماغ الكامنة :

لماذا هنالك بشر موهوبون للغاية في بعض المجالات دون غيرهم من حساب أو رسم أو عزف أو تعلم لغات و غيرها .. ؟

أغلب الناس سيجيبون على هذا السؤال بالقول **(لأن بعض مراكز الدماغ لديهم أكثر تطوراً من غيرهم بالأساس)** .. فهل هذا الجواب صحيح ؟

في الحقيقة ، لا ..

و كي نبرهن على ذلك سنلجأ إلى **متلازمة سافانت** التي تحدثنا عنها في مطلع الفصل مجدداً، ففي هذه المتلازمة يكون الشخص قبل الحادث الذي يتعرض له معدوم الموهبة تماماً ، لتظهر موهبة منقطع النظير لديه بعد الحادث مباشرة .. ما معنى ذلك ؟

ببساطة هذا يؤكد بشكل حاسم لا غبار عليه أن الدماغ البشري –

أي دماغ بشري - يحمل في طياته كل شيء ممكن على شكل طاقات كامنة بحاجة لفتيل إشعال كي تتفجر تدريجياً و **الحادث يتكفل بهذه المهمة** ، بمعنى أن العلماء حتى يومنا هذا يجهلون تماماً إمكانيات الدماغ البشري و كيف يحرضون مراكزه المختلفة كي تعبر عن نفسها بصورة متدرجة صعوداً ، و هذا يقودنا إلى حقيقة أخرى مذهلة بأن الإنسان العادي لا يستعمل من إمكانيات دماغه سوى **0.00000000000001 %** و ربما أقل ، بل إن القول أن عباقرة التاريخ يستعملون **5** % منها هو باطل بحد ذاته ، فهم يستعملون بعض هذا الإمكانيات أكثر من غيرهم لا غير .. و الحقيقة الأكثر إذهالاً هنا أنّ عبارة (**دماغ العباقرة**) مميز ، هي عبارة خاطئة ، و الصحيح أن نقول (**الدماغ**) بتركيبه مميز ، بل إنّ كلّ إنسان يحمل فوق جسده في صندوق جمجمته كنزاً مجانياً لا يقدر بثمن ألا و هو الدماغ، الكنز القادر حرفياً على كلّ شيء ، لكننا لا نمتلك مفتاح الصندوق حتى هذه اللحظة .. و الشيء المفائل في الحكاية أنه مفتح مفقود و ليس غير موجود ، بمعنى أننا سنعثر عليه لا محالة في قادم الأيام و السنين كما عثرنا على مفاتيح صناديق غامضة غيره من قبل ..

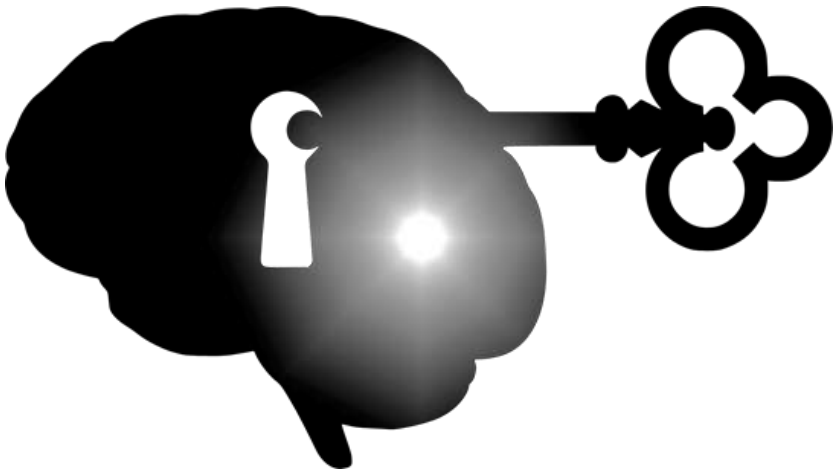

من المهم و الجميل الآن أن نقارب **مفهوم الطاقات الكامنة و التوحّد العبقري و متلازمة سافانت** من زوايا أخرى عبر مجموعة من الأمثة :

① **هرمونات الشدّة** : قد ترى الإنسان أمامك منهكاً من التعب

و يشكو من قلة الطاقة متيقناً بأن قدراته في الحضيض و بطاريته منتهية الشحن ، لكنّ زلزالاً بسيطاً في مدينته سيجعله أسرع من **العداء الجمايكي بولت** نفسه في النزول من منزله إلى الشارع فمن أين أتت هذه الطاقة كلها ، من العدم ؟!

بالطبع لا فالطاقة لا تفنى و لا تخلق من العدم ، بل هي طاقات كانت كامنة و نائمة في أعماقه تنتظر فتيل إشعال كي تتفجر بضخّ فيضان من هرمونات الشدة كالأدرينالين و الكورتيزول الكفيلة برفع مستويات القدرة لديه إلى الذروة !! و هذا يكافئ الطاقات الكامنة في دماغك ، تحتاج لدفعة قوية فقط كي تستيقظ و تجري ..

② **بناء العضلات و بناء الدماغ** : بناء الأجسام في **GYM** لا يختلف عن بناء الدماغ ، فعندما يركز الشخص النحيل على عضلاته فيرفع الأثقال بطريقة صحيحة يومياً ستتضخم هذه العضلات تدريجياً ..

و هذا ما نجده عند مرضى التوحد ، فهم بانغلاقهم على ذواتهم و عدم تواصلهم مع المحيط من حولهم ، فإنهم يلتفتون إلى هذه الإمكانيات و يمسحون الغبار عنها ثم يطورونها تدريجياً بالتدريب المزمن على مدار الساعة ثانية بثانية ، دون أن ينتبه المحيط لذلك ، حتى يبدعوا في مجالات معينة ، بمعنى آخر الإنسان العادي **بضغوط حياته و تشعب تفكيره و الإكثار من الكلام و اللغو** يتجاهل هذه الإمكانيات فيبدد قدراته عشوائياً هنا و هناك على أمور فارغة .. و هذا ما يفسر مثلاً ميل الأذكياء ذوي نسبة **IQ** عالية إلى العزلة عن المجتمع ، ببساطة هم يريدون التركيز على قدراتهم لتطويرها بالتدريج فيرفعوا أثقالهم العقلية، لقد وجدوا زرّ مذياعهم الخاص أخيراً و يريدون رفع صوته على عكس بقية البشر المتذمرين من ضعف الصوت !!

③ **ارتقاء الهرم العقلي** : عندما تكون واقفاً في مدخل برج شاهق الارتفاع، لنقل مثلاً (**برج إيفل**) ، فإنك سترى فقط الساحة أمامه ، لكنك كلما تدرجت بالصعود طابقاً تلو الآخر ستبدأ برؤية تفاصيل جديدة حتى تصل قمة البرج فترى مدينة باريس بكاملها منبسطة أمام عينيك برموزها و معالمها ..

و هذا هو حال الإنسان عندما يتدرج في اكتشاف إمكانياته العقلية ، كلما ارتقى درجة جديدة سيرى خفايا جديدة من أعماقه و من الكون من حوله ..و عندما يصل قمة الهرم العقلي **سيتوحّد حينئذ مع الذات الإلهية** (**العقل المطلق**) الذي يعرف كل تفصيل من الكون بدقة لا متناهية ، سيصبح الإنسان عندئذ **متوحداً مصاباً بمتلازمة سافات في كافة أقاليم العلوم و الحياة** قاطبة .

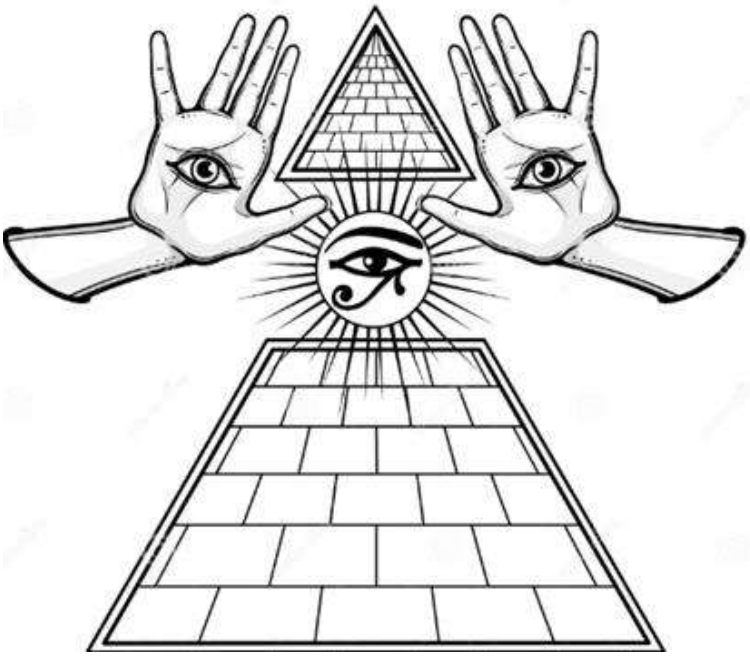

④ **البذرة و البويضة الملقحة** : فهذه بالنسبة لنا أشياء صغيرة بلا قيمة ، لكنها تحمل في جيناتها أشجاراً باسقة أو إنساناً كاملاً .. و للدماغ جيناته الخاصة التي تعبر عن نفسها في ظروف محددة فقط (توحد أو حادث أو تدريب عقلي مزمن و مستمر) كما البذرة تماماً، لتنبثق منها شجرة باسقة من الإمكانيات العقلية المذهلة ..

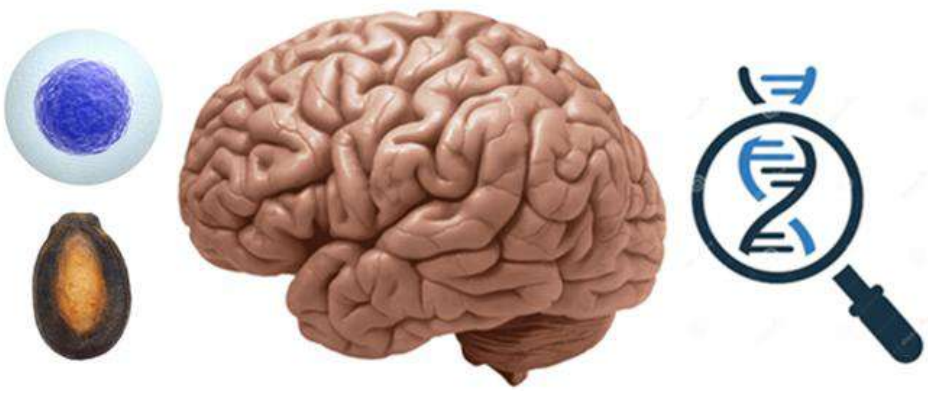

و كما تمكن العلم من دراسة الخريطة الجينية للإنسان على نحوٍ كبيرو بات قادراً على التلاعب بها لاجتراح المعجزات حرفياً، سيأتي يوم يكتشف فيه الخريطة الجينية للدماغ أيضاً أي إمكانياته المحفوظة في حالة سبات و طريقة إيقاظها ، و عندها سنرى بأم العين كماً هائلاً من المعجزات الجديدة يتحقق عندما تتطور بذرة الدماغ التي نجهل إمكانياتها الهائلة الكامنة في قلبها ضمن جيناتها إلى شجرة من الإمكانيات !!

⑤ **الإنسان و الحاسوب** : عندما تعطي طفلاً ما حاسوباً فإنه سيتجاهله أو سيقوم بالنقر العشوائي على أزراره أو يرفع الشاشة و يغلقها ، أو حتى يضرب الحاسوب بالأرض أو بأشياء أخرى .. و عندما يكبر قليلاً سيستخدم هذا الحاسوب للعلب بألعاب الفيديو .. و عندما يكبر أكثر سيستخدمه للدراسة أو مشاهدة الأفلام ، و عندما يكبر أكثر سيستخدمه في عمله، و إن تخصص الإنسان في دراسة الحاسوب أكثر سيتمكن من استعماله في البرمجة ، بل ستُفتح أمامه دنيا كاملة من الإمكانيات ..

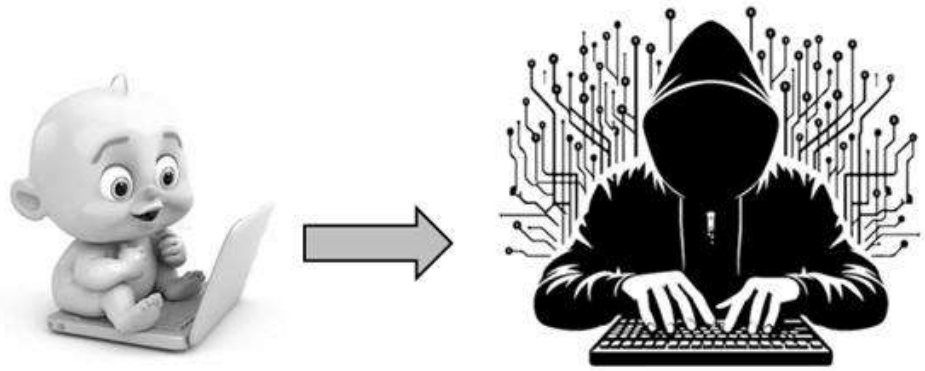

و على مر السنوات التي كبر بها الطفل كان الحاسوب هو نفسه بإمكانياته التي لم تتغير ، و المشكلة كانت في الإنسان لا غير ، فقد تعامل مع الحاسوب بحسب إمكانياته هو و توجهاته هو ، و هذا بالضبط هو حال الدماغ البشري ، يحتوي كل شيء حرفياً ، لكن الإنسان يستخدم منه ما يريده فقط ، أو ينحصر استخدامه بما يعرفه أو يتمكن من استخدامه من إمكانيات الدماغ ، و مع تخصص العلماء أكثر بدراسة العقل أو ما يطيب لي تسميته (**تهكير الدماغ**)

ستنفتح أمامهم مستقبلاً عوالم لا تنتهي من القدرات ..!! أما اليوم فلا يزال البشر أطفالاً يكبسون أزرار الدماغ بشكل عشوائي ..

⑥ **الانفجار العظيم** : و هذا هو المثال الأعظم لفكرة الطاقة الكامنة ، فالكون الشاسع الذي نعيش فيه برمته، بأجرامه كلها بما فيها كوكب الأرض و ما عليه كان ذات لحظة قبيل الانفجار العظيم مجرد نقطة صغيرة مفرطة الكثافة تحمل في **DNA** خاصتها شكل الكون المستقبلي و تطوره التدريجي صعوداً مليون سنة تلو مليون سنة حتى نهاية الكون و انكماشه ليعود إلى هذه النقطة مجدداً في نهاية المطاف .. و هذا هو بالضبط حال الدماغ البشري ، بحاجة لانفجار كبير كاكتشاف علمي مبهر يوضح **طريقة تفعيل مراكزه** ليتسع أمامنا كون من الإمكانيات العقلية المذهلة..

في صفحات التاريخ أمثلة كثيرة عن أشخاص محظوظين بإصابتهم بمتلازمة سافانت في مختلف نواحي الحياة **كأينشتاين و أديسون و غراهام بيل و فان غوخ و بيتهوفن و دافنشي و بيل غيتس و إيلون ماسك و صاحب الذاكرة الفولاذية كيم بيك** وغيرهم كثير.. و قد تم إنتاج فلم عن قصة حياة كيم بيك حمل عنوان (**رجل المطر**) يتناول متلازمة سافانت بطريقة درامية جميلة .. و كما ترى بنفسك عزيزي القارئ من هذه الأسماء ، فإنّ هذه المتلازمة هي التي طورت العالم و العلم و وصلت بالبشرية إلى ما هي عليه اليوم ، إنها باختصار **متلازمة تطور البشرية** حرفياً ..

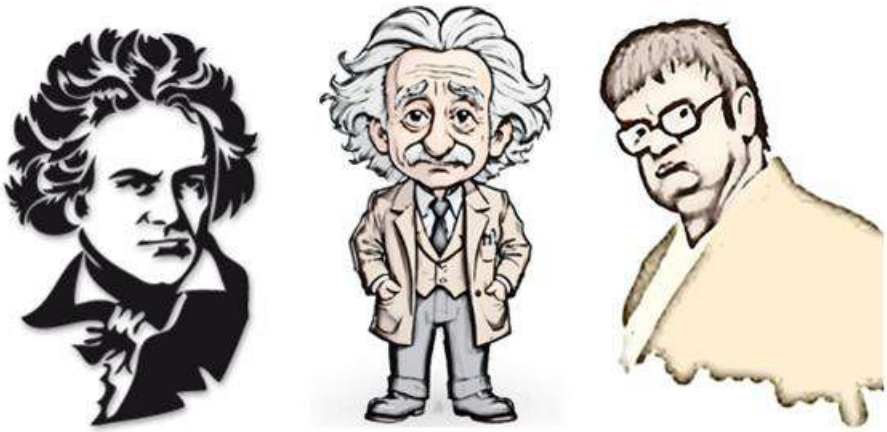

في ختام تحرياتنا عن القدرات الحقيقية للعقل البشري ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

❁ استعمال العباقرة لنسبة **5** % من إمكانياتهم العقلية هو معلومة خاطئة ، فالإنسان يستخدم **100**% منها ..

بل أن نقول :

❁ هذه الفكرة خاطئة بالفعل ، لأن العباقرة يستخدمون أقل من هذه النسبة بكثير .. و الإمكانيات العقلية النائمة في دماغ الإنسان لا يمكن الإحاطة بها .. و تنتظر قبلة الأمير الوسيم كي تستيقظ ، و قد يأتي هذا الأمير على هيئة حادث مثلاً كمتلازمة سافانت أو عالم جديد مبدع ربما مصاب بالتوحد يرفع النقاب عن آلية تفعيل مراكز الدماغ و رفع قدراته العقلية تصاعدياً(**يكتشف زر المذياع أخيراً**) و لا أشك للحظة أن هذا العالم سيكون محظوظاً بدوره بالإصابة بمتلازمة سافانت كغيره ، لا ندري ، لننتظر و نرى !!

الأشخاص الذين منحتهم الحياة هبة التوحّد يعشقون الروتين و يغضبون بشراسة إن حاول أحد العبث بروتينهم اليومي أو أي شيء يشوش هدوء عقولهم خلال تدريباتهم العقلية اليومية المزمنة و المستمرة ، كما يعشقون الانعزال عن الناس كي يلتفتوا فقط إلى موهبتهم الخاصة التي منحتهم إياها السماء و ينشغلون بها عن كل شيء من حولهم بما في ذلك الحياة نفسها ، و هذا ما جسده المشهد الختامي من فلم **أسطورة 1900** الشهير .. عندما يتم إسقاط قنبلة على السفينة التي شهدت أحداث الفلم ، و بينما تشق القنبلة طريقها في السماء نحو الأسفل ، نجد بطل الفلم المصاب بالتوحد مع موهبته الفريدة بالعزف على البيانو (متلازمة سافانت) ، جالساً مع صديقه البيانو يعزف آخر سمفونياته ..

فقد اعتاد بطل الفلم روتين الحياة على السفينة منذ طفولته حيث نشأ عليها ، و بات غير قادر على تغييره أبداً ، لذا فضّل الرحيل مع نمط حياته هذا (**العيش على السفينة + العزف على البيانو**)

لآخر لحظة على الحفاظ على حياته ذاتها ، كما هي سمات المتوحد بالضبط .. لتنفجر السفينة في ختام الفلم و يرحل معها البطل مع موسيقاه ..

الحاسوب

الأعظم

(أيهما أعظم قدرة العقل البشري أم قدرة الحاسوب ؟)

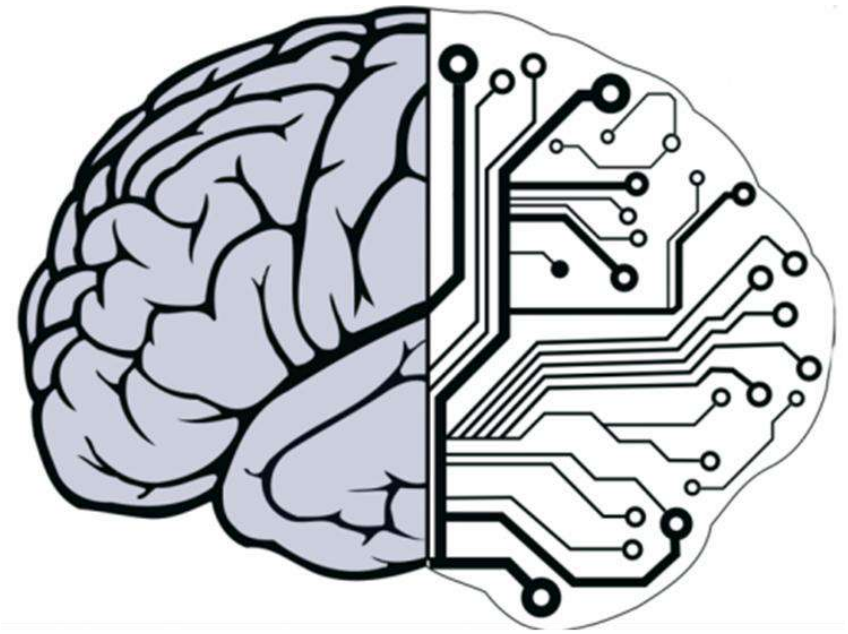

سؤال مشروع و محيّر طرح كثيراً بين البشر و في الأوساط الفلسفية و العلمية ، و نظراً لأهميته و حساسيته سنعمل خلال هذا الفصل على الإجابة عليه بشفافية و حياد عبر المقارنة العلمية المدعمة بالأرقام و الأبحاث و الأدلة بين العقل و الحاسوب من عدة زوايا غاية في الأهمية .. فهيا بنا صديقي القارئ في هذه المغامرة الشيقة الجديدة :

❁ الحاسوب معروف بتفاصيله الدقيقة و آلية عمله بحذافيرها كونه صناعة بشرية ، أما الدماغ البشري فأسراره لم تكتشف بعد بكاملها ، بل لم نقترب حتى من ذلك ، فلا تزال هنالك حتى اليوم أجزاء مجهولة الوظيفة بدقة في الدماغ ، ناهيك عن الوظائف الأخرى الجديدة التي تكتشف في الأجزاء المعروفة ، و العلم لا ينفك يذهلنا بكل جديد في هذا المجال يوماً بعد يوم .

❁ سرعة تخزين ذاكرة الدماغ لا محدودة بحسب دراسات علمية كثيرة ، و حتى الدراسات التي تجرأت على وضع رقم تقريبي لها دون إثبات علمي نهائي تذكر أن سعة التخزين بالدماغ البشري تعادل **بيتابايت** (الرقم **1** متبوعاً ب **15** صفراً) من البيانات أو

ما يعادل سعة الشبكة العنكبوتية العالمية (الإنترنت) بأسرها .. و لا يوجد حاسوب في العالم ينافس العقل البشري في ذلك و لو على نطاق ضيق .

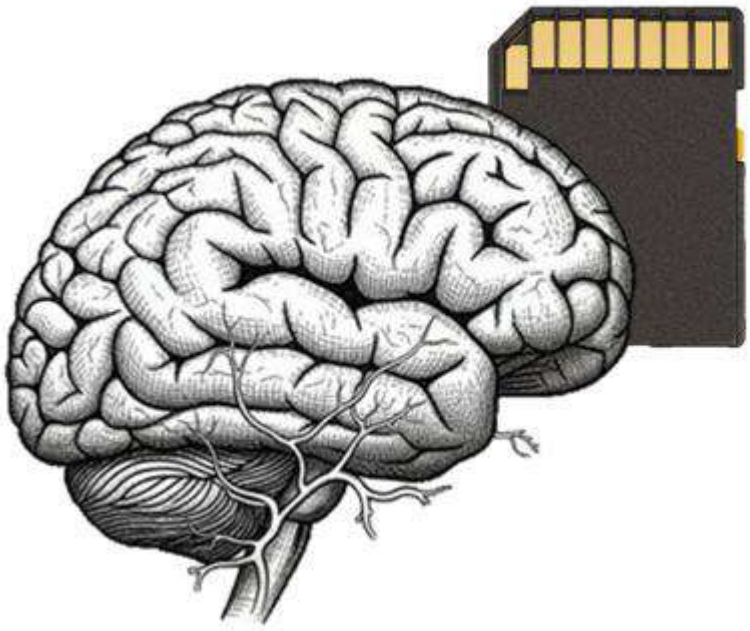

❁ سرعة معالجة الدماغ خيالية تعجز أحدث الحواسيب عن مجاراتها تماماً ، و قد ذكرت أحدث الدراسات أن البشر بحاجة لحوالي **75** ألف معالج لمحاكاة سرعة معالجة الدماغ للمعلومات في الثانية الواحدة .

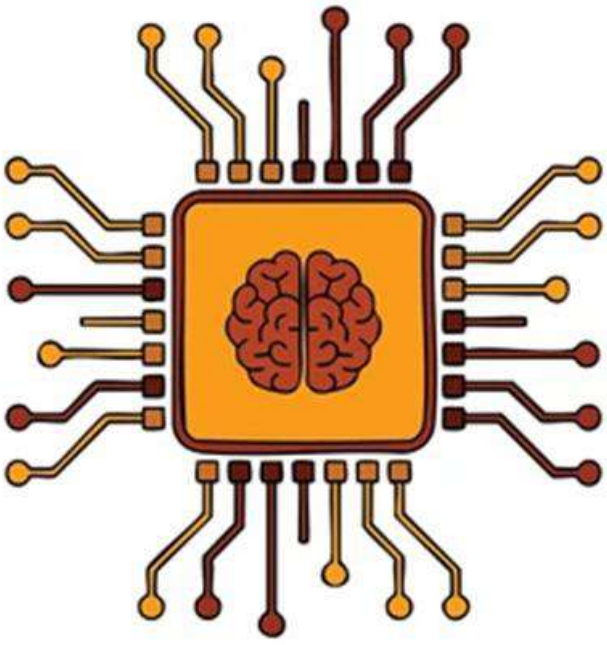

❁ الحاسوب يحتوي عدداً محدداً من الدارات ، أما الدماغ البشري فيحتوي **100** مليار خلية عصبية ، و هذا بحد ذاته يعطينا نظرة سريعة شاملة لفارق الإمكانيات بينهما دون التطرق إلى أي نقطة أخرى .

❁ العقل البشري يتمتع بخاصية الخيال الآني الذي يولّد صوراً و معلومات جديدة من العدم قبل إرتداد الطرف فيخلق بيانات جديدة ، أما الحاسوب فهو مبرمج سلفاً ببيانات ثابتة و لا يعرف معنى الخيال من الأساس .. هذا الخيال الذي مكّن الإنسان عبر التاريخ من اكتشاف و اختراع كل ما هو جديد بما فيه الحاسوب نفسه .

❁ القدرة على دمج المعلومات و الخروج بمعلومات جديدة خلّاقة عبر المحاكمة العقلية ، أما الحاسوب فيقتصر عمله على ما أدخل إليه من بيانات و لا يتحرك ميكروناً واحداً خارجها .

❁ الحاسوب يجب أن يرتاح كل فترة و إلا عطب ، أما الدماغ البشري فيعمل باستمرار حتى خلال ساعات النوم طول عمر الإنسان .

❁ البرمجة الآنية للدماغ للبيانات التي يستقبلها عبر الحواس ، في حين أن برمجة الحاسوب تستغرق شهوراً أو سنوات لهدف معين و على نطاق ضيق جداً ..

❁ الدماغ عدا عن الوظيفة المعرفية فهو يتحكم بعمل أجهزة الجسم كلها من حركة ، هضم ، طرح فضلات و غيرها ، أما الحاسوب فلا يعدو كونه جهازاً بدائياً من هذه الناحية فلا يؤثر بما يحيط به أو يتفاعل معه حتى الآن و وظيفته معرفية بحتة .

❁ لم ينجح أي حاسوب رغم تطوره الهائل حتى الآن في حل

المسائل العلمية المعقدة الرياضية أو الفيزيائية أو غيرها التي لم يقدر الإنسان على حلها بعد ، في حين نجد أن الإنسان مع الزمن يصل إلى حلها تباعاً لتسقط واحدة تلو الأخرى باستخدام عقله الجبّار فقط .

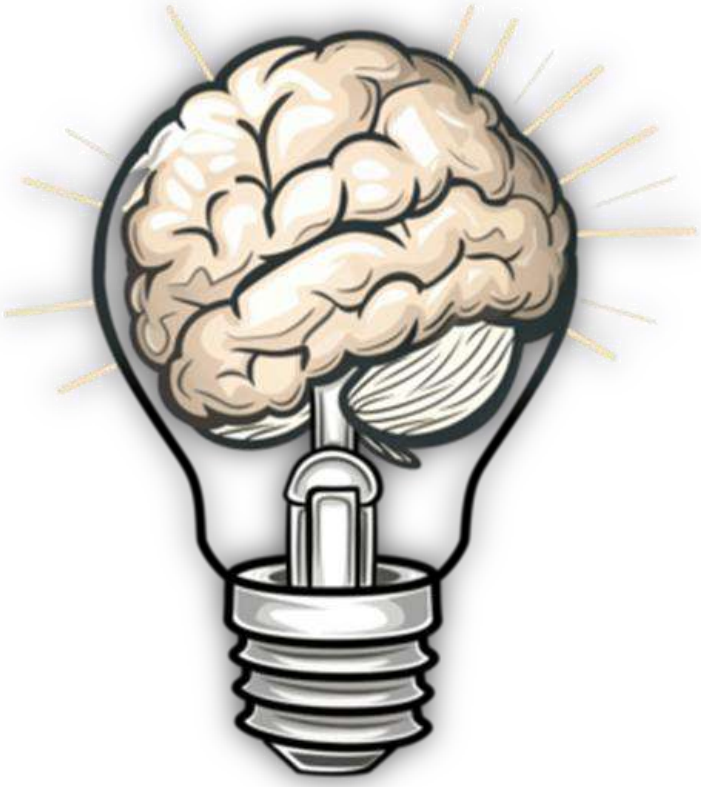

❁ كل ما أكتشفه الإنسان من أسرار الكون و الأرض بما فيها الحاسوب نفسه تم بواسطة العقل كآلة لا تتعب أو تتوقف عن إتحافنا بالمزيد ، كما أننا جميعاً ندرك و نؤمن يقيناً بأنه طالما هناك إنسان يعيش على وجه الأرض فالاختراعات و الاكتشافات لن تتوقف ، لثقتنا العمياء بإمكانيات العقل الهائلة ، أما الحاسوب فلو تركته إلى الأبد فلن يتغير أو يتطور قيد أنملة من تلقاء نفسه ما لم يطوره الإنسان بعقله فيحدّث برمجته بمزيدٍ من البيانات الجديدة ..

و القائمة تطول كثيراً في المقارنة بين الصانع (العقل) و المصنوع (الحاسوب) ، لذا سأكتفي بما ذكر على سبيل المثال لا الحصر ، مع التأكيد على الفكرة التي شرحناها في الفصل السابق

أن الإنسان فعل كل ما فعل باستخدامه للنذر اليسير من إمكانياته العقلية ، فما الذي يمكنه أن يفعل لو استخدم كامل هذه الإمكانيات و أي حاسوب يجرؤ على مقارنه نفسه بالدماغ البشري ساعتها ؟!

و خير من تطرق إلى هذه الفكرة المذهلة هو فلم (**لوسي**) السينمائي للمثل المبدع **مورغان فريمان** ، عندما تتمكن بطلة الفلم بسبب تعرضها لمادة كيميائية معينة من استخدام كامل إمكانيات الدماغ البشري على نحو مذهل .. و أنصحك عزيزي القارئ بمشاهدته و التمتع بطريقة تناوله الفريدة لهذه الفكرة .

ربما إن استخدم الإنسان كامل إمكانيات الدماغ لتماهى مع الإله ساعتها .. و هذا السر الخطير اكتشفه الرسام الإيطالي الشهير **مايكل إنجلو** في عصر نهضة العقل منذ قرون و ضمنه كلغز في جداريته الشهيرة في **كنيسة السيستين في الفاتيكان** عندما رسم الإله على صورة العقل البشري كما يظهر في عملية التشريح !!

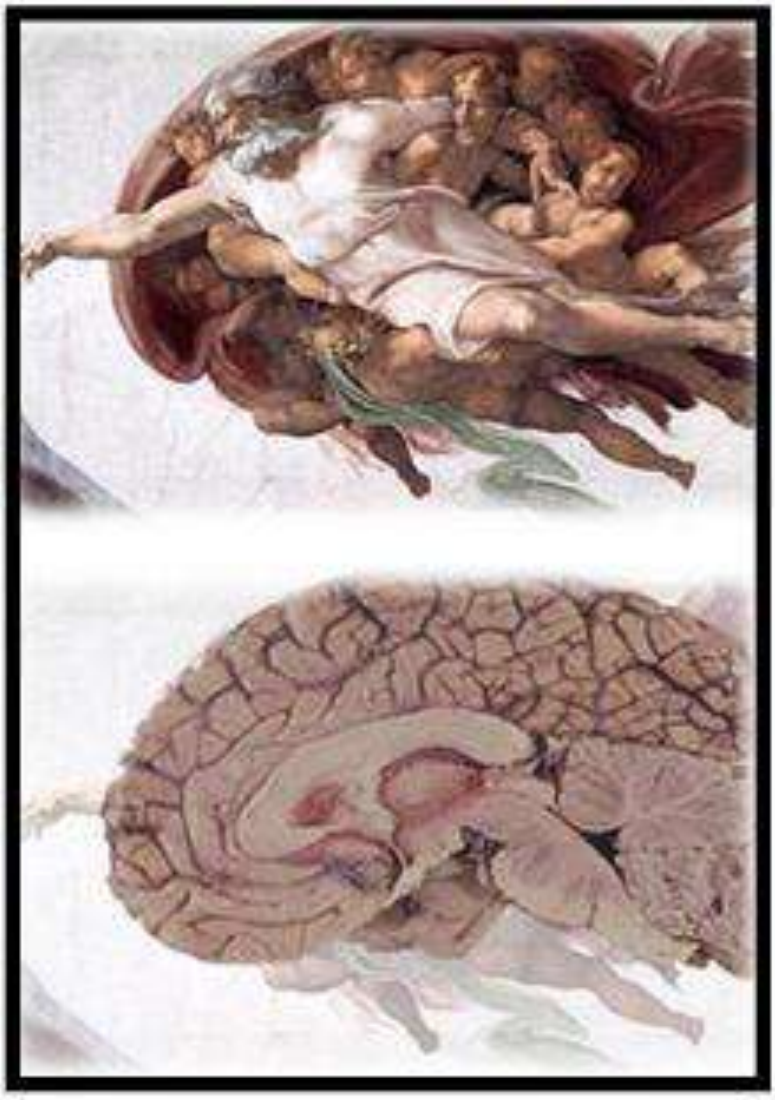

لذا لا عجب أن ينشد **الإمام علي** الحكيم بيت الشعر التالي مخاطباً كل إنسان :

و تزعم أنك جرمٌ صغير

و فيك انطوى العالم الأكبر

فالعقل هبة إلهية عظيمة و مجانية منحنا إياها الخالق دون مقابل ، كأمانة في أعناقنا علينا أن نحسن استخدامها لتعلم كل جديد ، و اكتشاف الكون ، و اختراع ما يحسن حيواتنا نحو الأفضل ، لذا علينا استثمارها لا رميها على رفوف جماجمنا كتحفة للزينة فحسب .. و الأهم أن نستخدمها من أجل الخير و صلاح الأفكار و الأقوال و الأعمال ..

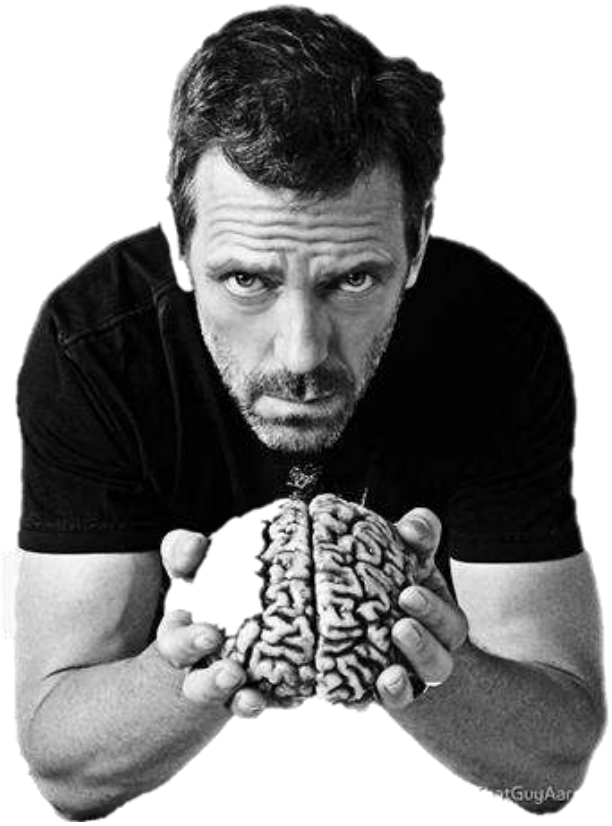

في الختام، حين نضع الدماغ البشري وجهاً لوجه أمام الحاسوب، لا نقف أمام مسابقة أرقام ولا سباق سرعات، بل أمام مفارقة وجودية عميقة : **آلةٌ تحسب، وكائنٌ يفهم**. فالحاسوب، مهما بلغت سُرعته واتسعت ذاكرته، يظل ابناً للطاعة، يعيش داخل أسوار ما أُعطي له من أوامر، بينما الدماغ البشري كائنٌ يتجاوز التعليمات، ويخون المسار المرسوم ليبتكر مساراً جديداً من العدم.

يتفوّق الدماغ لا لأنه أسرع، بل لأنه أعمق. لأن كل نبضة كهربائية فيه لا تحمل رقماً فحسب، بل تحمل معنى، وذكرى، ورجفة شعور، وندبة تجربة سابقة. الدماغ لا يعالج المعلومات كما

تُصفّ الملفات في أرشيف بارد، بل كما تُعاش الحياة: متداخلة، ملتبسة، مشحونة بالعاطفة والحدس والتناقض. الحاسوب يحسب الاحتمال، أما الدماغ فيشعر به قبل أن يولد، ويخافه، أو يراهن عليه، أو يحوّله إلى حلم.

ثم إن الدماغ لا يعمل كجهازٍ واحد، بل ككونٍ صغيرٍ مكتفٍ بذاته؛ بلا ساعة مركزية صارمة، بلا برنامجٍ واحد حاكم، بل عبر فوضى خلاقة، تتعاون فيها مليارات الخلايا العصبية، تتصارع وتتصالح، تخطئ وتتعلم. الخطأ عند الحاسوب خلل، أما الخطأ عند الدماغ فهو باب الحكمة. من العطب تولد العبقرية، ومن التردد تولد الفكرة، ومن الشك يولد الإبداع.

الحاسوب يعرف ما هو الشيء، لكن الدماغ يسأل : لماذا هو كذلك؟

الحاسوب يتعرف على الوجوه، لكن الدماغ يتذكر أول ابتسامة، وأول فراق، وارتعاشة الصوت التي لا تُقاس.

الحاسوب يكتب قصيدة، لكن الدماغ هو الذي يتألم بها، ويؤمن أنها قيلت من أجله وحده.

وفي النهاية، يبقى الفارق الحقيقي غير قابل للقياس : الدماغ لا يكتفي بمعالجة العالم، بل يصنع معنىً له. إنه العضو الوحيد القادر على أن يفكر في نفسه، أن يشك في قدرته، وأن يتجاوزها في اللحظة ذاتها. لذلك، مهما علت أبراج السيليكون وتكاثرت الخوارزميات، سيظل الدماغ البشري متقدماً بمسافات لا تُقاس بالميغاهيرتز ولا بالغيغابايت، بل تُقاس بقدرة واحدة لا تملكها أي آلة :

أن يكون واعياً بأنه حيّ ... وأن يحوّل هذا الوعي إلى معرفة، وإلى فن، وإلى سؤال لا ينتهي.

المعقل

الكوني

هل الكون برمته مجرد دماغ عملاق يفكر و ما نحن سوى تجسيد مادي لأفكاره ؟! ..

سؤال جريء و خطير للغاية كما يبدو جلياً ، و قد يعتبره البعض – معذورين - مجرد مادة خصبة لكتاب الخيال العلمي لا أكثر ، لكن الحقيقة أن هذا الاعتبار محض مغالطة صرفة ، لأن هذه الفرضية تملك من الأدلة الشيء الكثير و في مختلف أقاليم الحياة أيضاً ، مما يجعلها تكاد تلامس بأناملها سقف اليقين .. و مهمتي خلال الصفحات التالية أن أعمل على تدوير الزوايا بحيث ترى بنفسك صديقي القارئ **العقل الكوني** من مختلف المناظير ، علنا نصل إلى أجوبه حاسمة و مقنعة على سؤالنا السابق ..

و سنحاول سوياً إنجاز ذلك عبر مقاربة **فرضية العقل الكوني** من الزوايا الثلاثة الشيقة التالية :

① **العقل الكوني ..**

② **تدوير الزوايا ..**

③ الإنسان كصدى للكل ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نفكر قليلاً بأدمغتنا ، هل أفكارنا و أفعالنا ما هي إلا ترجمة لأفكار دماغ كوني أشمل و أكبر منا ؟!

أولاً ، العقل الكونيّ :

منذ أن فتح الإنسان عينيه على اتساع السماء، راح يسأل نفسه :

هل الوعي محصور في جمجمته، أم أنّه يتجاوزها ؟

هل يفكّر الإنسان بالعقل، أم أن الكون نفسه عبارة عن دماغ عملاق يُفكّر من خلال الإنسان ؟

تلك الأسئلة التي تردّدت في المعابد القديمة كما في مختبرات الفيزياء الحديثة، تقودنا إلى فكرة الوعي الكوني ، الفرضية التي ترى أن الوعي ليس نتاج الدماغ البشري فحسب، بل هو نسيج كوني شامل، البحر الذي تسبح فيه كل الكائنات والأفكار، والمصدر الذي يربط الذرّة بالمجرة، والنَفَس بالخلود.

الوعي الكوني هو الفكرة التي تُذيب الحدود بين الداخل والخارج، بين الذات والموضوع.

فالعقل البشري ، في هذا التصوّر، ليس مصباحًا منفصلاً، بل شعلة من نارٍ عظيمة تُضيء من وراء الزمان ..

إنه المحيط الذي تُلقي فيه المجرّات بأمواجها، كما تُلقي الأدمغة بأفكارها.

ثانياً ، تدوير الزوايا :

لنحاول الآن مقاربة فرضية العقل الكوني من مختلف الزوايا : (دينية ، علمية ، فلسفية و فنية) :

❁ في ضوء الدين : الله والوعي بوصفهما وجهين للحضور

في النظرة الدينية، نجد جذور الوعي الكوني متوغّلة في أعماق النصوص المقدّسة.

فالله في جوهره ـ كما تقول الأديان التوحيدية ـ ليس كائنًا منفصلًا عن الكون، بل حاضراً فيه حضوراً يملأ كلّ ذرة وكلّ قلب. يقول القرآن الكريم :

(سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم)

إشارة إلى أن جوهر الله يتغلغل في كل ثنايا الكون ..

وفي **التصوّف الإسلامي**، تبلورت هذه الفكرة بوضوح مذهل. **فابن عربي** مثلاً يقول :

(العالم خيال، والحقّ هو الظاهر فيه بصورة الخيال)

أي أنّ الله لا يُرى إلا في مرايا الوجود، وأن كلّ ما نراه هو تجلٍّ للوعي الإلهي.

أما في **الفلسفة الهندوسية القديمة**، فمفهوم **البراهمان** يمثّل الحقيقة

الكلية، الوعي الذي لا بداية له ولا نهاية، والذي تتجلّى فيه كلّ الأشياء كما تتجلّى الأمواج في البحر.

والإنسان عندهم هو **أتمن** ، أي الوعي الفردي، الذي ما هو إلا انعكاس للوعي الكلي ، ومهمة الحياة هي إدراك أن الأتمن هو البراهمان نفسه، أي أن (**أنا ليست سوى الكلّ**) وقد نسي ذاته.

وفي **المسيحية**، يمكننا أن نلمح ذات المعنى في قول **المسيح** :

(ملكوت الله في داخلكم)

أي أن الحضور الإلهي ليس بعيداً في السماء، بل نابض في عمق النفس، كأنّ الوعي البشري هو البوابة التي يطلّ منها الله على العالم.

و في **التوراة** يقول الله أنه خلق الإنسان على صورته ، أي أن الدماغ البشري ما هو إلا إسقاط لدماغ كوني أكبر

وهكذا، حين ننظر دينيًا، نجد أن الوعي الكوني ليس فكرة غريبة، بل هو اللغة السرّية التي تحدثت بها الأديان جميعها ، لغة تقول إن الله، أو الحقيقة المطلقة، ليست خارج الكون بل فيه، وليست منفصلة عن الإنسان بل متجلية فيه.

❁ في مختبر العلم : الكون كشبكة واعية ..

لنبدأ هذه الزاوية من تجربة علمية مذهلة تفجّر العقل حرفياً ، حيث قام كل من **فرانكو فازا** عالم الفيزياء الفلكية في جامعة بولونيا الإيطالية ، و **ألبرتو فيليتي** جراح الأعصاب في جامعة فيرونا الإيطالية بإجراء مقارنة بين الشبكة الكونية و الشبكة العصبية في الدماغ ، لتظهر لهما أوجه تشابه مفاجئة كثيرة بينهما ..

❁ الدماغ البشري يعمل بفضل شبكته العصبية الواسعة التي تحتوي على ما يقارب **100** مليار خلية عصبية، كذلك الأمر يتكون الكون المرئي من شبكة كونية من **100** مليار مجرة على الأقل ..

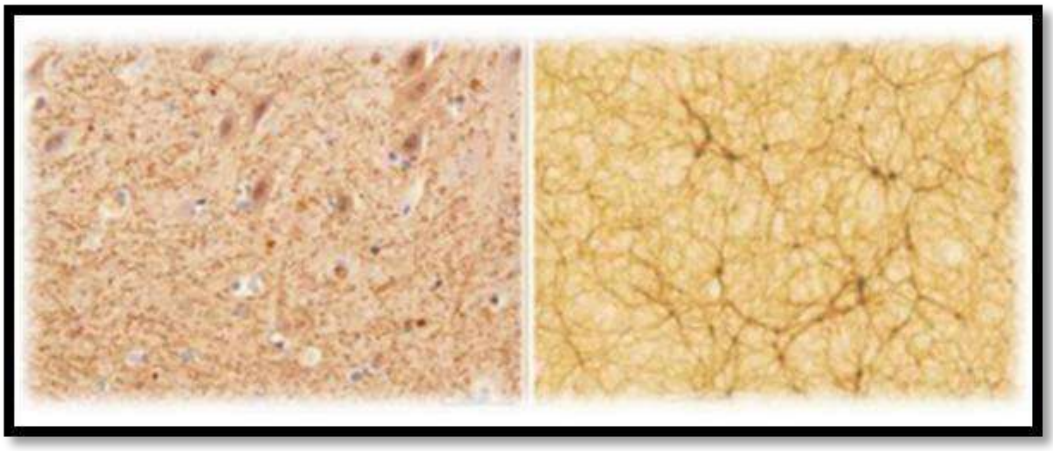

❁ داخل كال النظامين تتكون **30** % فقط من كتلة الشبكتين من مجرات خلايا عصبية، في حين يتكون **70** % من توزيع الكتلة من مكونات تلعب على ما يبدو دوراً سلبياً (الماء في الدماغ والمادة المظلمة في الكون المرئي)..

❁ ليس ذلك فحسب بل إنّ تراتب المجرات و الخلايا العصبية هو نفسه في الشبكتين ، عبارة عن خيوط طويلة مع عقد بين الخيوط ..

❁ أخيراً تبين أن الكثافة الطيفية متشابهة بين الشبكتين

فهل نحن حقاً مجرد أفكار طارئة تجول في خيال هذا الدماغ الكوني العملاق ؟!

منذ قرون، كان العلم المادي يرفض كل ما هو غير ملموس.

لكن في القرن العشرين، ومع **ثورة الفيزياء الكوانتية**، بدأ كل شيء يتغيّر.

فالعلماء الذين كانوا يبحثون عن المادة الصلبة اكتشفوا أن المادة تتصرّف كالموجة، وأن الجسيمات لا توجد إلا حين تُرصد، وكأن الوعي هو من يخلق الواقع لحظة الملاحظة.

في **تجربة الشق المزدوج ليونج** الشهيرة، أثبت الفيزيائيون أن الإلكترون يسلك سلوكاً مختلفاً إذا تمّت مراقبته و كأنه يملك وعياً ذاتياً !!.

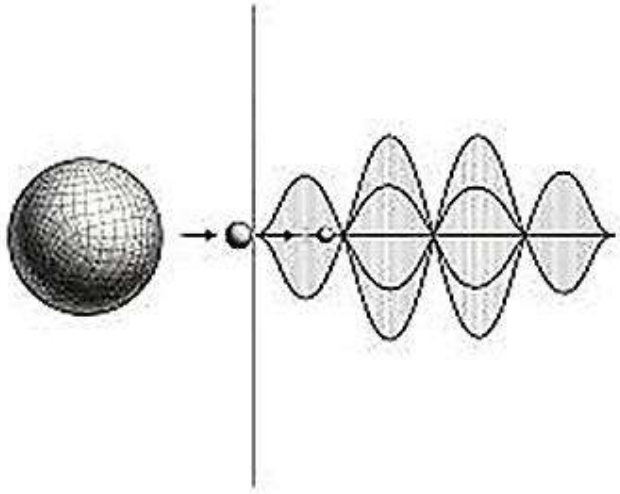

وهذا يعني أن الوعي ليس مجرّد متفرّج، بل فاعل أساسي في بنية الكون.

ومن هنا انطلقت فرضيات جديدة تقول إن الوعي ليس نتيجة للمادة، بل المادة نفسها مظهر من مظاهر الوعي.

في القرن الحادي والعشرين، صارت هذه الفكرة أكثر جديّة.

فالعالم **روجر بنروز**، الحائز على نوبل في الفيزياء، يرى أن الوعي مرتبط بظواهر كمّية تحدث في أنابيب دقيقة داخل الخلايا العصبية، ما يعني أن العقل البشري ليس آلة ميكانيكية، بل **نقطة التقاء بين المادة والوعي الكوني الكمومي**.

وعالم الأعصاب **كريستوف كوخ** يذهب أبعد من ذلك، إذ يقول إن كل شيء - حتى الذرّة - يحمل درجة من الوعي ، صغيرة لكنها موجودة.

هذا هو ما يسمّى في الفلسفة بـ **البانسيكزم** أي أن الوعي مكوّن أساسي من مكوّنات الواقع، كالمكان والزمان والطاقة.

تُظهر دراسات فيزياء المعلومات أن الكون كله يمكن أن يُفهم كنظام معالجة بيانات هائل، أشبه بعقلٍ لا نهائي يتبادل الرموز والمعاني عبر المجرّات.

بل إن بعض العلماء يقترحون أن الكون ذاته يفكّر عبر قوانينه، تطوّره، وتراتبية أنظمته، كما يفكّر الدماغ عبر تشابكاته العصبية.

وبهذا يصبح الإنسان، في المنظور العلمي الحديث، خليّة في دماغ كوني، يساهم وعيه الفردي في وعي المجموع.

❁ الفلسفة : من ديكارت إلى الوعي الكلّي ..

منذ أن قال **ديكارت** : (**أنا أفكر إذن أنا موجود**) ، تمركز الفكر الغربي حول الذات المفكّرة.

لكنّ الفلاسفة اللاحقين بدأوا يشكّكون في هذا التمركز : هل الأنا

فعلاً مستقلة، أم أنها نتاج شبكة أكبر من الفكر و الوجود ؟

هيغل، مثلاً، رأى أن **الوعي ليس فردياً بل كليّاً** ، عقل العالم الذي يتطوّر عبر التاريخ ليعرف ذاته من خلالنا.

وفي القرن العشرين، قدّم الفيلسوف الألماني **شلينغ** مفهوم **الطبيعة الواعية بذاتها** ، حيث كل شيء في الوجود يسعى إلى الوعي بالذات ، من الذرّة إلى الإنسان إلى الإله.

أما الفلاسفة الوجوديون، فقد رأوا في الوعي الكوني طريقاً للتحرّر من عبودية الذات.

فـ **هايدغر** تحدّث عن **الكينونة** لا بوصفها موضوعاً نعرفه، بل **كنور يُشرق** داخل وعينا.

إنه يقول، في جوهر فكره، إن الوجود نفسه واعٍ، وإن الإنسان ليس إلا نافذة مفتوحة عليه.

وفي الفلسفة الشرقية الحديثة، **كفلسفة كريشنامورتي**، يُقال إن الوعي البشري هو نتيجة انقسام بين المراقب والمراقَب، وإن التحرّر يكمن في إدراك أنه لا فصل بينهما ، أن الوعي هو المرآة التي تعكس نفسها إلى ما لا نهاية.

بمعنى آخر : **حين نعرف أن الوعي ليس لي و لا لك ، بل هو الكلّ، نتحرر.**

أما في اليونان القديمة ، فقد آمن **أفلاطون** بالنفس الكونية التي تخلق العالم على صورتها.

قال إن النجوم والكواكب ليست جمادات، بل كائنات حية عاقلة، تتحرك بانسجام لأنها تفكر في انسجام.

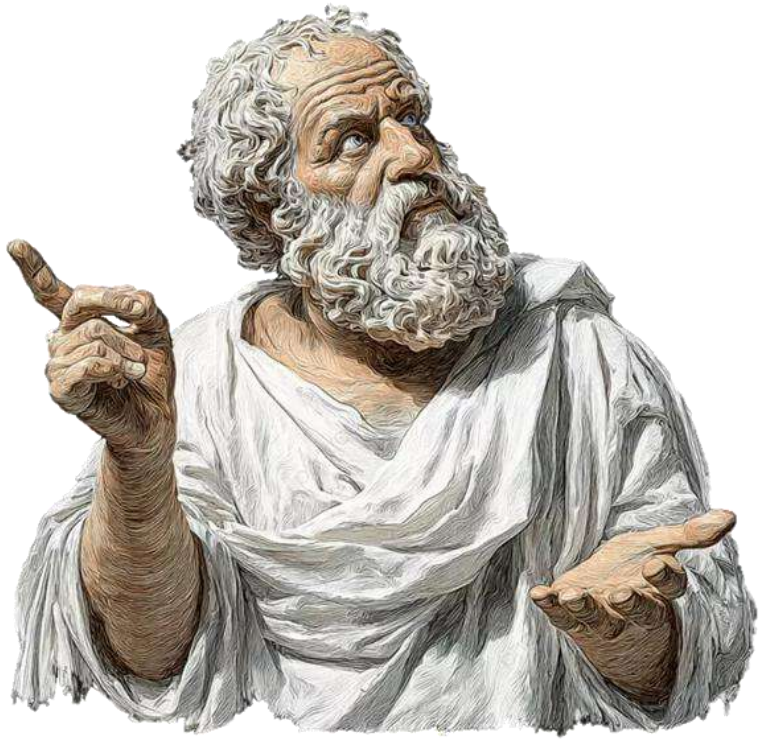

وفي **الفلسفة الرواقية**، كان الكون جسدًا واحدًا أيضاً، والعقل الإلهي هو **اللوغوس** (القوانين الكونية) الذي يسري فيه كما يسري العقل في الجسد.

وهنا تظهر المفارقة الكبرى : الفلسفة والدين والعلم - على اختلاف لغاتهم - تلتقي جميعاً عند عتبة واحدة :

أن الوعي أقدم من المادة، وأن الكون، في عمقه، ليس شيئاً ، بل حالة من الإدراك المستمر.

❁ الفن والوعي الكوني: الجمال بوصفه لغة الروح ..

إذا كان العلم يبحث في قوانين الوعي، والفلسفة في معناه، فإن الفن يختبره مباشرة.

الفنان حين يخلق، لا يفعل ذلك من ذاته المحدودة، بل من فيضٍ يتجاوزها ، من مجرى غامض يتدفّق عبره كما يتدفّق اللحن عبر الوتر.

الشاعر الذي يكتب بيتًا مدهشًا لا يعرف من أين أتى، والرسّام الذي يرسم مشهدًا لم يره من قبل ، كلاهما يشهد لحظة اتصال

بالوعي الكوني، لحظة يُفتح فيها الباب بين الداخل والخارج. الفن، بهذا المعنى، ليس ترفاً، بل ترجمة جمالية للوعي الكوني.

الرموز والأساطير، الألوان والأصوات، كلها محاولات من الروح البشرية لتقول ما لا يُقال.

وحين نرى لوحة **فان غوخ** (**ليلة النجوم**)، لا نرى فقط السماء، بل نرى كيف يشعر الكون حين ينظر إلى نفسه من خلال إنسان.

وحين نسمع سيمفونية **بيتهوفن** التاسعة، نسمع ما يشبه فرح

المجرّات وهي تعي وجودها.

و حين يقول **الحلاج** : (**مزجت روحك بروحي كما تمتزج الخمرة بالماء الزلال**) ، فهذا تأكيد على أن الإنسان جزء ذائب في نسيج الوعي الكوني ..

الفن هو اللغة التي لا تحتاج إلى ترجمة بين الإنسان والكون.

هو البصيرة التي تُدرك أن الجمال ليس في الشيء، بل في الانسجام بين الوعي والموجود.

ولذلك، يمكن القول إن كلّ لحظة إبداع هي لحظة وعي كوني متجسّد في شكل بشري، وأن **الفنان الحقيقي هو رسول الوعي الشامل إلى العالم الضيّق للإنسان.**

ثالثاً ، **الإنسان كصدى للكل** :

حين ننظر إلى كل هذه الزوايا - الدينية والعلمية والفلسفية والفنية –

نكتشف أن نظرية الوعي الكوني ليست ترفاً فكرياً، بل منظور شامل لتوحيد الفهم الإنساني.

إنها تقول لنا إننا لسنا جزراً معزولة، بل خلايا في كائن أعظم، وأن كلّ وعي فردي هو صدى للوعي الأكبر الذي يُفكّر بنا جميعًا.

قد يبدو هذا التصوّر صوفيًا أو شاعريًا، لكنه يحمل دلالات عملية عميقة : فإذا أدرك الإنسان أنه ليس منفصلاً عن العالم، سيتوقف عن استغلاله وتدميره. وإذا شعر أن كل كائن حيّ هو تجلٍ للوعي نفسه، سيتعامل مع الوجود برحمة ودهشة واحترام.

إنها ليست فكرة عن الكون فحسب، بل طريقة جديدة للعيش فيه.

في النهاية، ربما يكون الوعي الكوني هو الوجه الآخر للوجود ،

المرآة التي ينظر الله من خلالها إلى ذاته، والعقل الذي تحلم به المجرّات، والنبض الذي يوحّد التراب بالروح، والنور بالظلّ، والإنسان بالكلّ.

إذن و بعد المقاربة السابقة ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

❁ فرضية أن الكون عبارة عن دماغ عملاق يفكر مجرد شطحة من شطحات الخيال العلمي لا أكثر ..

بل أن نقول :

❁ هذه الفرضية تمتلك من البراهين ما يبررها فما بين تشابه البنية النسيجية للكون و للدماغ من جهة ، و بين تشابه اللغة المشتركة بينهما (**الموجات**) ، و بين فيزياء الكم الساحرة التي تحكم قبضتها على الكون و الدماغ تبرز فرضية العقل الكوني على نحو أكبر من مجرد خيال علمي سرابي ..

يقول العالم **كارل ساغان** :

(**نحن وسيلة الكون لمعرفة نفسه**)

تلك الجملة تلخّص فرضية العقل الكوني كلها في ومضة واحدة.

فالإنسان، في جوهره، ليس سوى أداة الإدراك الكبرى التي بها يعبر الوعي الكوني عن ذاته.

إننا، حين نفكر، لا نخلق الوعي، بل نُعيده إلى بيته الأصلي.

وحين نتأمل في سماء الليل، فالنجوم لا تلمع فحسب، بل تفكّر بنا.

في لحظات الصفاء العميق - في الصلاة، في الحب، في الفن، في الصمت - نشعر بشيء يوقظنا من داخلنا، كأننا نتذكّر أننا لم نكن أبدًا منفصلين، وأن هذا العالم ليس سجنًا، بل جسد العقل الكوني

نفسه، وأننا ذرات في فكره العظيم.

إنها لحظة الفهم التي فيها يهمس الكون للإنسان :

(أنت لست شيئًا في داخلي، بل أنا الذي في داخلك)

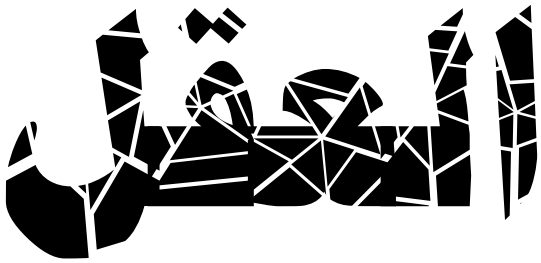
العقل

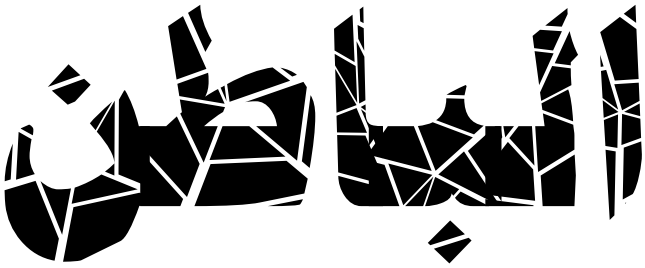
الباطن

وقف الشاب أمام إحدى لوحات الفنان الإسباني الشهير سلفادور دالي يتأملها بعمق ثم التفت إلى مرشد الجولة و سأله بدهشة ..

= سيدي ، ما المبهر بهذه اللوحة ؟ لا أرى سوى أشياء غريبة لا معنى واضح لها أو رابط منطقي بينها ؟ أين هي الطبيعة أو الأجساد البشرية التي تضج بالحياة كحال بقية اللوحات في المعرض .. إنها أشكال عبثية عشوائية بلا هدف أو غاية ؟

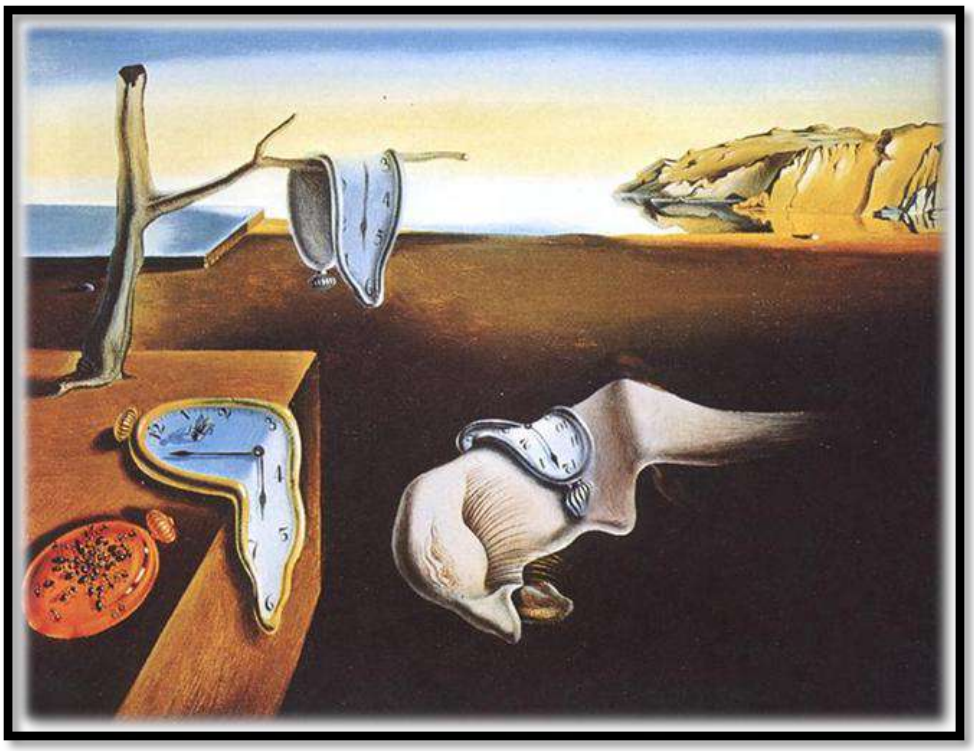

ابتسم المرشد بلطف :

= محق .. لكن هذا النوع من الفن يدعى بالفن السريالي و هو ليس فناً واقعياً يجسد الأمور كما هي من حولنا ..

= و كيف يجسدها إذن ؟!

= لفهم الفن السريالي علينا فهم **العقل الباطن** أو اللاواعي أولاً .. فهذا الفن هو تجسيد لما يجول في هذا العقل تماماً على شكل لوحات فنية أو موسيقى أو حتى شعر .. و العقل الباطن بالأساس ضبابي بالنسبة لنا و مبهم لذا تكون نتيجة ترجمته إلى أعمال فنية ضبابية و مبهمة بدورها ..

= فهمت ، لكن ما الفائدة من هذا الفن أساساً إن كان بالأساس مجرد أعمال غير واضحة ..؟!

= لأن الفنانين و بشراً كثيرين يؤمنون بأن اللاوعي هو المحرك الأساسي لأفعالنا و إن كنا نجهل الآلية بدقة ، كما يؤمن كثير منهم بأنه صلة الوصل بين العالم المادي و العالم الغيبي الروحاني ..

= لم أفهم !!

= مثلاً تعتبر الأحلام جوهر السريالية و متنفس **العقل الباطن** عندما يعبر عن نفسه بحرية ، و يؤمن السرياليون بأن الأحلام أيضاً وسيلة السماء لمخاطبتنا بشكل مباشر .. لذا يعتبرون ترجمة الأحلام إلى أعمال فنية كرسالة من السماء تحتاج التفسير و التقصي ..

= و ما الذي يقصده الفنان دالي مثلاً من الساعات الذائبة في هذه اللوحة أمامنا ؟!

= الله أعلم ، لكن بحكم أنني مسلم العقيدة ، فأرى هذه اللوحة تنسجم بقوة مع آية مذهلة من القرآن الكريم ..

= أثرت فضولي ، و علامَ تنص هذه الآية ؟

= تقول :

(و إن يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدون)

و كما تلاحظ ، هذه الآية تشير بشكل صريح إلى أن الوقت في العالم الآخر أبطأ بكثير من الوقت في عالمنا الأرضي ، و بإسقاط هذه الآية على لوحة سلفادور دالي التي تجسد كما يبدو عالماً غريباً على البشر يمر الوقت فيه ببطء .. فيمكننا القول بأن دالي رأى في أحلام اليقظة أو الأحلام الحقيقية ما يشبه جنان الله و ترجمها إلى لوحته هذه بطريقته الخاصة .. طبعاً هذا افتراضي الشخصي لا أكثر ..

= و هو افتراض مناسب بشكل مثالي .. لا أنكر ..

= هل فهمت الآن سرّ شعبية الفن السريالي ؟

= بالطبع .. **إنه الفسحة التي يعبر فيها اللاوعي عن نفسه بحرية كرسائل سماوية لنا ..**

= بالضبط .. أحسنت التلخيص و التشبيه ..

= لكن ما درجة سيطرة اللاوعي على وعينا سيدي ؟

= سيطرة أكبر و أخطر مما يعتقد كثير من البشر ، لكن المكان هنا غير مناسب للحديث فهو موضوع شائك و مطول ..

= أتحب أن نلتقي في أحد المقاهي مساءً كي نتابع هذا النقاش مع فنجان قهوة .. فلطالما أثار موضوع اللاوعي اهتمامي و فضولي و يبدو أنك تملك معلومات قيمة و مثيرة عنه ..

= و شيقة أيضاً .. لا مانع من اللقاء أبداً ، يناسبك موعد على الساعة السابعة في مقهى العرّاب ..

= مناسب تماماً ..

*****

اللاوعي .. العقل الباطن .. اللاشعور ..

مصطلحات كثيرة تدور في فلك مفهوم واحد و هو **الخلفية النفسية** للإنسان التي تحرك وعيه كرجل الدمى و بخيوط متينة للغاية لكنها غير مرئية، فتتحكم بأفكارنا و أقوالنا و افعالنا و قراراتنا ..

فهل هذه الفرضية حقيقة بالفعل ، أم أنها محض مغالطة شائعة لا أكثر ، و إن كانت صحيحة ، فإلى أي درجة يتحكم اللاوعي بالوعي و يملي قراراته عليه ؟!

هذا ما سنحاول معرفته عبر الصفحات التالية في محاولة متواضعة منا لرفع النقاب عن عالم اللاوعي الغامض و الساحر .. و لإنجاز ذلك سنقوم بمقاربة العقل الباطن من **6** زوايا هامة و شيقة تشتمل على :

① **نظرية جبل الجليد ..**

② **نظرية الصندوق الأسود ..**

③ **نظرية الدولة العميقة ..**

④ **كيف يعبر اللاوعي عن نفسه ؟ ..**

⑤ **السريالية ..**

⑥ **قوة الإيحاء (قانون الجذب) ..**

فهيا بنا عزيزي القارئ نمخر عباب محيط اللاوعي .. **بحر ظلمات النفس البشرية** لتشرق الحقيقة بوعي كامل عليه و نكتشف **عالماً جديداً من الحقائق المذهلة ..**

أولاً ، نظرية جبل الجليد:

هذه النظرية وضعها عالم النفس النمساوي **سيجموند فرويد** في النصف الأول من القرن **20** و تنص على أن حجم تأثير الوعي و اللاوعي على النفس البشرية هو كجبل الجليد تماماً الذي يظهر جزء يسير منه فقط فوق سطح الماء و يمثل الوعي ، أما القسم الأكبر منه فيكون تحت سطح الماء و يجسد اللاوعي ..

و التحليل النفسي للإنسان يثبت بأن حجم تأثير اللاوعي مهول بالفعل على حياته و إن كنا لا نشعر به بوضوح ، بل إن الغالبية الساحقة من قراراتنا يتخذها العقل الباطن و ليس الوعي ..

ثانياً ، نظرية الصندوق الأسود:

تشبه هذه النظرية اللاوعي أو العقل الباطن بالصندوق الأسود للطائرات الذي يحمل تسجيلات لكل ما جرى على سطح الطائرة خلال رحلتها ، كذلك العقل الباطن يحتوي على كل ذكريات الإنسان منذ ولد و كل المعارف و الخبرات التي اكتسبها و كل غرائزه المكبوتة أو مشاعره السلبية التي عانى منها ثم رماها إلى الحديقة الخلفية (اللاوعي) ، و كما أن الصندوق الأسود مفيد في حالات الكوارث الجوية لفهم أسبابها ..

كذلك يأتينا التنويم المغناطيسي أو التحليل النفسي بيد خبير مختص كي ينبش صندوق العقل الباطن و يخرج منه أسباب كثير من مخاوفنا أو تصرفاتنا غير المنطقية ، و كمثال معبر للغاية عن هذه الفكرة سنحكي قصة حقيقية عن طبيب عسكري عانى من فوبيا الأماكن المغلقة.. فكان يشعر بفزع شديد عندما يركب القطار،

خصوصاً إذا مر من نفق أو توقف في داخله.. أما إذا كان مدعواً إلى حفل أو اجتماع فقد كان يحرص كل الحرص على البقاء قرب الباب، استعداداً للمغادرة في أي لحظة، ناهيك بأنه كان مهتما بقراءة قصص المحبوسين وقصص الذين يدفنون أحياء.. وذات يوم تم استدعاء الطبيب للالتحاق بساحة المعركة بقصد تقديم العلاجات الأساسية لجرحى الحرب.. وبمجرد وصوله وجد الجنود مكدسين في الخندق، فبدأت مخاوفه من المكان المغلق، ومما عقد الأمر أكثر أنه أعطي فأساً لكي ينقذ نفسه في حال ردم عليه الخندق، مما زاد من قلقه، ولم يعد يحتمل الوضع إلى درجة أنه أصيب بشلل تام نقل على إثره إلى المستشفى، ليتبين أن شلله ليس عضوياً بل نفسياً .. وخضع لعلاج عند محلل نفسي لمدة طويلة.. وتمكن الطبيب من جعله يتذكر مجموعة من الأحداث المنسية، اعتماداً على التنويم المغناطيسي ، وتفكيك بعض الأحلام التي كان يرويها له أثناء العلاج ، وفي النهاية، وبعد طول عناء من الطبيب والمريض نفسه، تم التوصل إلى الحدث الأساسي الذي يقف خلف مخاوفه كلها ، فكان على الشكل التالي :

(كان هنالك في بلد المريض متجر لشيخ عجوز يبيع فيه الأغراض القديمة والمستعملة ، وكان الأطفال، بمن فيهم الطبيب المريض، يأخذون إليه كل شيء قديم حصلوا عليه مقابل دراهم معدودة تمكنهم من شراء الحلوى.. و قد تذكر الطبيب بالتنويم المغناطيسي أنه حين كان في الرابعة من عمره ذهب إلى المتجر لبيع بعض الأغراض، وعندما همّ بالعودة وجد باب الممر المؤدي إلى بيته مغلقاً .. التفت إلى الجهة الأخرى فرأى كلبا ينبح عليه بوحشية ..

و قد تفاجأ الطبيب من تذكر ذلك فقد نسيه بالكامل.. ومع استمرار العلاج، حلم بأنه حصل على منحة للدراسة في اسكوتلندا.. وعندما استيقظ تذكر اسماً اسكوتلندياً وهو اسم صاحب ذلك المتجر.. وبهذا يكون الطبيب قد استعاد الحدث المؤلم بجميع

تفاصيله، و بالمحصلة تمكن من الشفاء من فوبيا الأماكن المغلقة)

و كما نلاحظ عزيزي القارئ مشكلة نفسية تسببت في عرقلة الحياة الطبيعية لإنسان كان سببها الأساسي حادثة في العقل الباطن تعود لسنوات الطفولة الأولى ، مما يوضح أكثر تأثير هذا العقل على حياة البشر ..

ثالثاً ، نظرية الدولة العميقة :

الدولة العميقة مصطلح سياسي يقصد به وجود قوى عسكرية و سياسية خفية داخل الدولة ذات نفوذ كبير و تعمل في الظل لفرض توجه سياسي معين دون أن يشعر المواطنون بأي شيء ، و يشار إليها أيضاً بالدولة داخل الدولة .. و هذا المصطلح ينطبق تماماً على مفهوم العقل الباطن ، فالوعي هو الدولة ، و اللاوعي هو الدولة العميقة التي ترسم شكل الدولة الخارجي .. أما عناصر الدولة العميقة فهي كما أسلفنا منذ قليل :

- **الغرائز المكبوتة ..**
- **المخاوف ..**

- **المشاعر السلبية ..**
- **الذكريات ..**

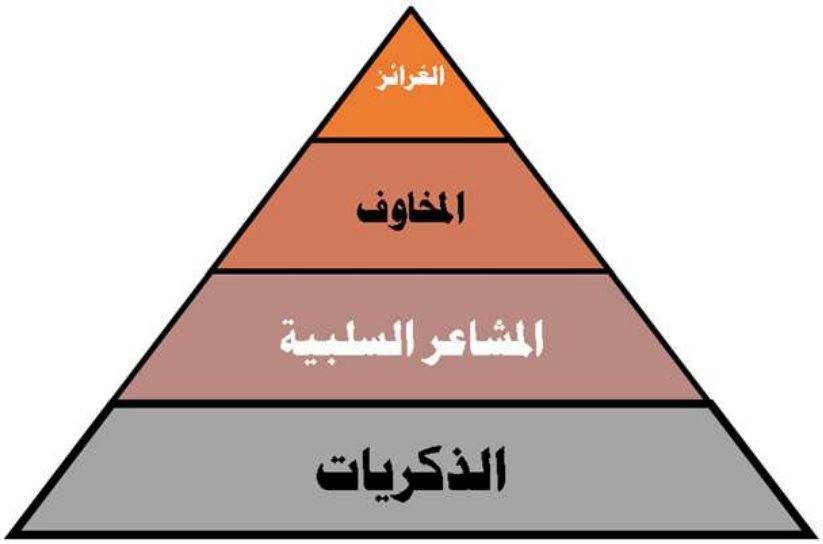

و هذا الرباعي هو من يحرك الوعي بخيوط غير مرئية و يضع لمساته الأخيرة على قراراتنا النهائية في حياتنا اليومية ..و تعتبر الغرائز هي الجنرال الذي يقود الدولة العميقة (العقل الباطن) كلها

رابعاً ، كيف يعبر اللاوعي عن نفسه ؟:

في الحقيقة اللاوعي يعبر عن مكنوناته بطرائق شتى و لعلّ أهمها :

❁ **الأحلام** : و هي الطريقة الأشيع و الأوسع و تشمل أحلام اليقظة و أحلام النوم و في كلتي الحالتين ينفك لجام العقل الباطن ليعدو بحرية و يعبّر عن نفسه كما يحلو له دون عوائق أو محظورات ..

❁ **الزلات و الهفوات** : سواء اللفظية منها أو الجسدية ، فكثيراً ما يقول المرء كلمات غريبة في موقف ما يكشف كثيراً من أسراره القابعة في لاوعيه ، و هذا هو التعبير الحرفي لمقولة :

(المرء مخبوء تحت لسانه)

❁ **الأفكار الطارئة** : التي يشبهها الناس بالمصباح الذي يضيء فوق رؤوسنا .. فما هذه الأفكار الطارئة سوى نتيجة نهائية لعملية معالجة مزمنة و طويلة للبيانات في عقلنا الباطن حتى توصّل بنهايتها إلى الحل أو الفكرة الجديدة الخلاقة ، و في قصص العباقرة خير دليل على هذه النقطة عندما استيقظوا ذات يوم من نومهم مذهولين و قد توصلوا لحل مسائل أو معضلات شائكة يفكرون بها منذ سنوات ،حتى تمكن أخيراً العقل الباطن في نومهم أن يحلها ..

❁ **الخيال** : فخيال الإنسان هو الحقل الذي يعدو فيه لاوعيه على

هواه فيزور أماكن أو يلتقي أشخاص أو يقوم بأشياء كثيرة يحرّمها الوعي في الحالة الطبيعية ..

❁ **التنويم المغناطيسي** : و الذي شكل ثورة طبية في علم النفس ، عندما نحل لجام العقل الباطن و نسمح للاوعي بالتعبير عن نفسه بحرية كاملة ، كما لو كنا في جلسة استحضار أرواح ، لكننا هنا في جلسة استحضار بيانات الصندوق الأسود في أعماقنا بكل ما يحمله من ذكريات و مخاوف و غرائز مكبوتة ..

خامساً ، السريالية :

هي نوع من الفنون يعتبر سفير العقل الباطن إلى الوجود الظاهر، إذ يقوم بتجسيد أفكارنا اللاوعية (التي نصبح على تماس معها عبر الأحلام أو الزلات أو الأفكار الطارئة أو الخيال...) بطريقة فنية كلوحة أو قصيدة أو مقطوعة موسيقية أو منحوتة أو أي عمل فني آخر ليحتفظ بهذه التجارب اللاشعورية كتذكارات عابرة للأجيال ، و كثيراً ما تبوح هذه الأعمال الفنية مع مرور الوقت بأسرار كبيرة و مذهلة ، كاكتشاف جديد يفسر مضمون لوحة ما أو

اختراع تم ذكره في قصيدة قديمة و هكذا .. و قد اشتهر فنانون كثر بنمطهم السريالي و يعتبر عرابهم بلا منازع هو الرسام الإسباني الشهير **سلفادور دالي** الذي أتينا على ذكره في مقدمة مغالطتنا، و قد وصفه نقاد كثر بالفنان المجنون ، كون أغلب لوحاته تجسد أشياء غامضة و غريبة لا معنى واضح لها في واقعنا الملموس ..

و كما يقال بين العبقرية و الجنون شعرة ، و **هذه الشعرة ببساطة هي التي تربط الوعي العاقل باللاوعي المجنون** ، لذا يقال عن أي شخص تأتيه حالة وجدانية ينجز بها عمل فني مميز بأن شيطان العبقرية لبسه ، و هذا صحيح علمياً بالفعل ، إذ أن هذه اللحظة هي اللحظة التي يسلم فيها الوعي زمام القيادة للاوعي ليعبر عن نفسه كما يريد ، حتى أن كلمة عبقري في اللغة العربية يعود أصلها إلى مكان في شبه الجزيرة العربية يدعى **عبقر** و تقول الأسطورة أنها أرض سكنها الجن ، و كأن الإنسان العبقري يسيطر جني بالفعل على عقله فيمنح اللاوعي الحرية كي يبدع على هواه !!

سادساً ، **قوة الإيحاء** (**قانون الجذب**):

كما سبق و ناقشنا فإن مخزون عقلنا الباطن هو ما يحدد قرارتنا و أفعالنا و بالتالي نجاحاتنا بشكل عام مستقبلاً ، فإن كان هذا المخزون سلبياً كانت النتائج سلبية ، و إن كان إيجابياً كانت إيجابية ، و هذا ببساطة هو مفهوم قانون الجذب ، **أي أنك كما توحي لنفسك أن تكون ستكون** ، و هذا يؤكد بدوره قوة تأثير الإطراء الذاتي للمرء على نفسه ضمن حدود المعقول و تشجيع ذاته في تحقيق النجاحات ، كما يفسر تأثير الدعاء مثلاً على قدرنا المستقبلي .. لذا احرص عزيزي القارئ على ضخّ كل ما هو إيجابي إلى عقلك الباطن ، لأن ذلك بنفسه هو من سيتخذ قراراتك المستقبلية ، فإما أن تكون سلبية و انهزامية أو إيجابية و حماسية ..

*****

في ختام مقاربتنا لمفهوم (**العقل الباطن**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

❁ أنا مسيطر على حياتي و قراراتي بكامل وعيي ..

بل أن نقول :

❁ تأثير اللاوعي على وعينا يشبه بنية جبل الجليد حيث يشكل الجزء البارز فوق الماء منه (الوعي) نسبة صغيرة فقط .. كذلك الحال يمكن تشبيه تأثير اللاوعي بالكون من حولنا .. فالنسبة الساحقة من الكون هو مادة مظلمة غير مرئية و مجهولة التكوين (العقل الباطن) في حين تشكل المجرات (الوعي) نسبة صغيرة من الكون .. لكن التأثير الأكبر هو للمادة المظلمة التي تحافظ على النسيج الكوني متماسكاً .. و بالتالي العقل الباطن هو المؤثر الأكبر على قراراتنا اليومية من أبسطها إلى المصيرية منها ، و لكل قرار منها أسباب عميقة تتنوع بين الغريزة و المخاوف و المشاعر السلبية و الذكريات و الخبرات ، و يقوم اللاوعي بمعالجة كل ذلك ليخرج بنتيجة معينة تدفعنا إلى اتخاذ قرار بعينه دون سواه ..

يقول شاعرنا السوري الكبير **نزار قباني** :

ذروة العقل يا حبيبي الجنون

و مما سبق و ناقشناه ، فهذا الكلام منطقي علمياً للغاية **فالجنون هو حالة اتحاد الوعي باللاوعي** و هو ذروة العقل بلا أدنى شك عندما نفهم الخلفية النفسية التي تؤثر على قراراتنا ، مما يمكننا من التحكم بها و توجيهها كما نريد بدلاً من توجيهنا هي كما تشاء ..

العقل من منظور الشعوب

لم يكن العقل يومًا عضوًا صامتًا في جسد الإنسان، بل كان منذ اللحظة الأولى التي انتبه فيها الكائن البشري لذاته، نارًا خفيّة توقد السؤال، ومرآة يرى فيها الوجود انعكاسه.

به تمايز الإنسان عن الكائنات، لا بالقوة ولا بالمخلب، بل **بالقدرة على الفهم، والربط، والتأمل، والتجاوز.**

العقل لم يكن مجرد أداة للنجاة، بل صار جسرًا إلى المعنى، وطريقًا إلى الحكمة، وسلّمًا حاول الإنسان عبره أن يلامس السماء.

العقل في الأمثال العربية : حكمة الصحراء وميزان التجربة

الأمثال العربية لم تُصَغ في مجالس الفلاسفة، بل وُلدت في الأسواق، وتخمّرت في الصحراء، ونضجت على ألسنة الشيوخ بعد عمرٍ من الخسارات والانتصارات.

ولهذا جاء العقل فيها مقرونًا **بالحذر، والتعقّل، وضبط الاندفاع.**

فقيل :

(العقل زينة)

(العاقل خصيم نفسه)

(من لا عقل له لا رأي له)

(ربّ رأيٍ أنقذ صاحبه)

في التراث العربي، العقل ليس ذكاءً مجرّدًا، بل أخلاق في التفكير، وقدرة على كبح النزوة، وتأجيل اللذة، ورؤية العواقب.

العاقل هو من "يعقل" الشيء، أي يربطه، كما يُعقَل البعير، فلا يتيه ولا يندفع في المهالك ، و من هنا ولدت كلمة (**عقل**) .

ولم يكن غريبًا أن **يُقابل العقل بالجهل لا بالجنون**؛ فالجاهل في الوعي العربي هو من لم يُعمل عقله، لا من فقده.

العقل في الأمثال العالمية : صوت الإنسانية الواحد بلهجات شتّى

رغم تباعد الجغرافيا، تتشابه نظرة الشعوب إلى العقل كما تتشابه النار في كل المواضع التي اشتعلت فيها.

في **التراث اليوناني** :

(العقل هو أعظم عطايا الآلهة للإنسان) ، قال **أفلاطون** ..

في **التراث الصيني** :

(العقل الهادئ يرى الطريق واضحًا)

في **اليابان** :

(الحكمة تبدأ حين تعرف أنك لا تعرف)

في **إفريقيا** :

(العقل مثل المظلة، لا يعمل إن لم يُفتح)

وفي **أوروبا** :

(فكّر مرتين قبل أن تتكلم، مرة واحدة قبل أن تفعل)

هذه الأمثال، على اختلاف ثقافاتها، تشترك في حقيقة واحدة :

العقل ليس معرفة فقط، بل وعي، واتزان، ومسؤولية.

كيف نظرت الشعوب إلى العقل؟ بين قداسة وخشية

اليونان : العقل كإله خفي

عند اليونان، كان **العقل هو الطريق إلى الحقيقة**.

سقراط جعله أداة السؤال، و **أفلاطون** رآه جسرًا إلى عالم المثل، و **أرسطو** نظّم به الكون في مقولات ومنطق.

الهند : **العقل بين الوهم والتحرّر**

في الفلسفة الهندية، **العقل أداة مزدوجة** :

قد يكون قيدًا يصنع الوهم أو الشرّ، وقد يكون طريقًا للتحرر و الخير إذا صُقِل بالتأمل.

الصين : **العقل المتناغم**

الكونفوشيوسية رأت **العقل جزءًا من نظام أخلاقي كوني** ..

ليس عقلًا صداميًا، بل عقلًا ينسجم مع الطبيعة والمجتمع.

العقل في الثقافة الإسلامية :

العقل ميزان بين النقل والروح

في الحضارة الإسلامية، **لم يكن العقل خصمًا للوحي، بل شريكًا له.**

نشأت **علوم الكلام، وأصول الفقه، والفلسفة**، كلّها محاولة لضبط العلاقة بين العقل والنص، لا لإلغاء أحدهما.

أفلا يعقلون: العقل في القرآن كنور ومسؤولية

القرآن لا يعرّف العقل تعريفًا فلسفيًا، لكنه يوقظه.

يخاطبه لا بوصفه عضوًا، بل فعلًا مستمرًا.

(أفلا يعقلون)

(لعلّكم تعقلون)

(إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)

العقل في القرآن :

ليس امتيازًا بل تكليفًا

ليس حرية مطلقة بل أمانة

ليس أداة جدل بل طريق هداية

واللافت أن القرآن يربط غياب العقل بالغفلة لا بالجنون :

(لهم قلوب لا يفقهون بها)

فالعقل هنا مرتبط بالقلب، لا كتشريح، بل كمعنى :

العقل نور، والقلب مرآته.

نور العقل و النور الإلهي : جدلية لا خصومة

في التراث الصوفي والفلسفي الإسلامي، تكرّر الحديث عن نور العقل ونور الله.

لم يُرَ العقل خصمًا للنور الإلهي، بل مصباحًا يهيّئ الإنسان لتلقّي ذلك النور.

قالوا :

(العقل كالسراج، والوحي كالشمس، فكيف يُستغنى عن أحدهما ؟)

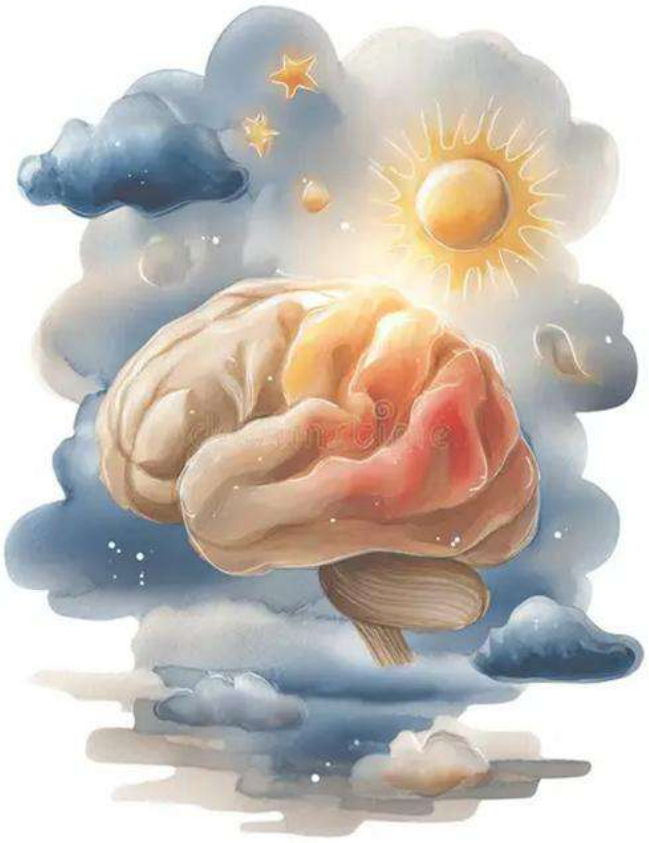

العقل وحده قد يتوه ..

والوحي دون عقل قد يُساء فهمه.

ولهذا كان العقل في التراث الإسلامي :

أداة فهم

شرط تكليف

طريق تأمّل في آيات الكون

الاحتفاء بالعقل

لا يوجد "**عيد عالمي للعقل**" بمعناه الرمزي .. لكن العالم يحتفي به بأشكال أخرى :

- اليوم العالمي للفلسفة عبر (اليونسكو)
- يوم العلم
- يوم التفكير النقدي
- جوائز نوبل، لا تُمنح إلا لمن وسّع حدود العقل الإنساني

وكأن البشرية، وإن لم تُسمِّه صراحة، تعرف أن العقل هو أعظم ما يُحتفى به.

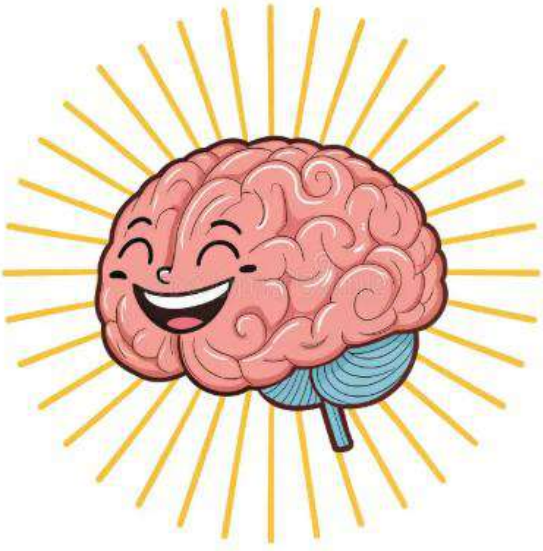

العقل بين الجنون والعبقرية

التراث الإنساني لطالما وقف حائرًا أمام العبقري : هل هو أعقل الناس أم أقربهم إلى الجنون ؟

قالوا :

(بين الجنون والعبقرية خيط من نور)

وكأن العقل، حين يبلغ أقصاه، يلامس حدود اللامألوف، فيُساء فهمه.

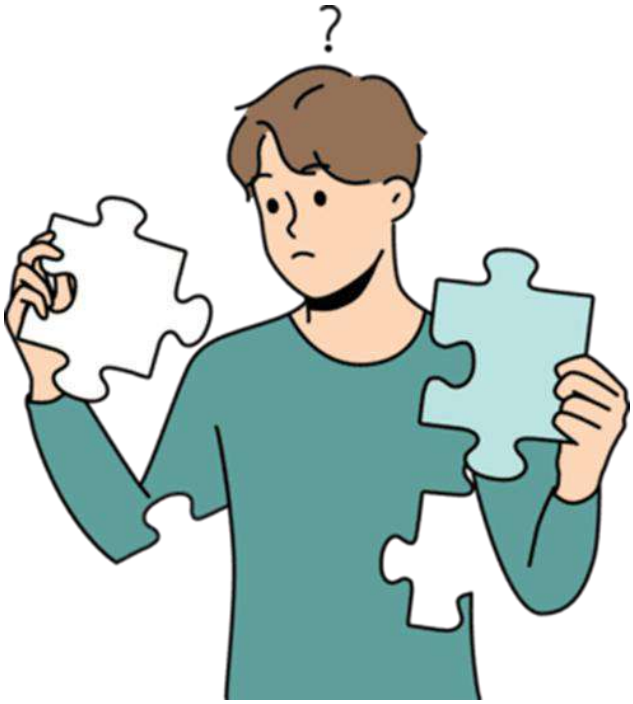

العقل ليس مجرد قدرة على الحساب ..

ولا آلة تحليل باردة ..

بل أثر من آثار النفخة الأولى.

به نسأل ..

وبه نخطئ ..

وبه نهتدي ..

وبه نبحث عن الله ..

وبه نعرف أننا لا نعرف.

وحين يُطفأ العقل، لا يظلم الفكر فقط، بل يظلم الإيمان، والعدل، والرحمة.

وحين يُضاء، يصبح الإنسان شاهدًا على نفسه، وعلى الكون، وعلى المعنى.

العقل هو النور الذي إن غاب، صارت النصوص جدران زنزانة ..

وإن حضر، صارت الجدران نوافذ حرية و انعتاق .

ملك على عرش عظمي

على عرشٍ من عظمٍ أبيض، مصقولٍ بصمت السنين، يجلس الدماغ البشري ملكًا لا يُرى، متوَّجًا بتلافيفه، محاطًا بأسوار الجمجمة كما تُحاط الأسرار العظمى بالحذر. لا يرفع صوته، ولا يلوّح بسيف، ومع ذلك لا تتحرك خطوة في هذا الجسد إلا بإذنه، ولا تولد فكرة، ولا تومض ذكرى، ولا يرتعش حلم، إلا وقد مرّ أولًا عبر بلاطه الخفي.

هو ملك بلا هيئة، وسلطان بلا صورة، ومع ذلك فآثاره تملأ العالم. في عتمة صمته تتكوّن **الأفكار** كما تتكوّن النجوم في ليلٍ كونيّ بعيد، وفي نسيجه الرقيق تُنسج المعاني، وتُختبر الاحتمالات، وتُقاس المسافات بين ما هو كائن وما يمكن أن يكون. لا يفكر الدماغ فحسب، بل يخلق التفكير ذاته؛ لا يتخيل فقط، بل يهب

الخيال جناحين، ويعلّمه كيف يحلّق فوق حدود الواقع دون أن يفقد طريق العودة.

في قاع تلافيفه، حيث لا يصل الضوء ولا اللغة، تُصاغ أولى بذور **الابتكار**. هناك، في مناطق لا نعرف أسماءها إلا تقريبًا، يجرؤ الإنسان على كسر المألوف، على أن يرى ما لم يُرَ من قبل، وأن يسمع صدى أفكار لم تُنطق بعد. الدماغ لا يكتفي بأن يستقبل العالم، بل يعيد تأليفه، يعيد ترتيب فوضاه، ويمنحه شكلًا يمكن احتماله. إنه لا يرضى بأن يكون مرآة للكون، بل يصرّ أن يكون مؤلفًا له.

وحين يحين وقت **المحاكمة المنطقية** ، يتحول هذا الملك الحالم إلى قاضٍ صارم. يزن الأفكار بميزانٍ دقيق، يفرّق بين الصدق والوهم،

بين الرغبة والحقيقة، بين ما نشتهيه وما نستحقه. لكنه، حتى في صرامته، ليس آلة باردة؛ **فالعاطفة** تسكن أروقته، وتلوّن أحكامه، وتجعله إنسانيًا، مترددًا أحيانًا، متناقضًا أحيانًا أخرى، لكنه حيّ دائمًا. في هذا التناقض بالذات تكمن عظمته، إذ يجمع بين المنطق والنار، بين الحساب والحنين.

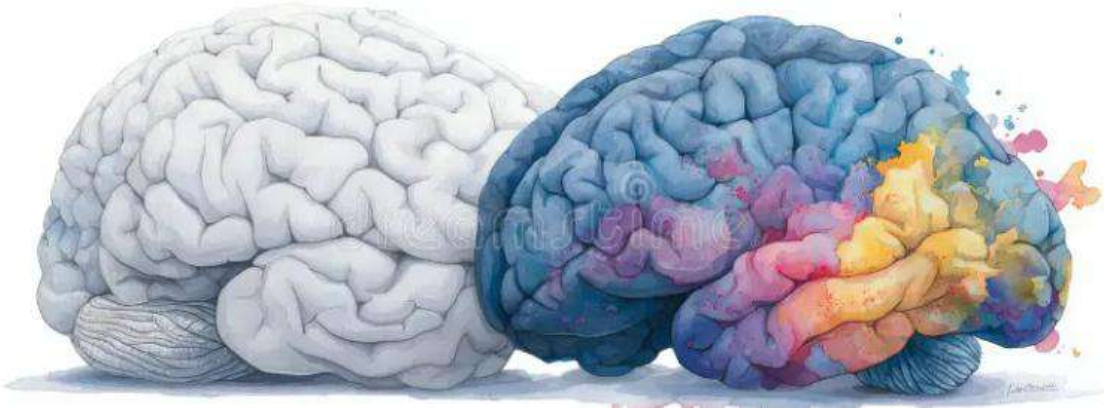

أما **الذاكرة**، فهي خزائنه السرّية، المصفوفة بلا نظام ظاهر، والمحفوظة بنظام أعمق من الفهم. هناك ترقد الطفولة جنبًا إلى جنب مع الأمس القريب، وتختلط الضحكة الأولى بندبة قديمة، وتبقى وجوه غابت منذ عقود قادرة على العودة في لحظة، كاملة الملامح، كاملة الأثر. الذاكرة ليست مجرد سجلّ للأحداث، بل هي هوية ممتدة، هي ما يجعل الإنسان هو هو، رغم تغيّر الجسد وتبدّل الأزمنة. ومن دونها، يسقط الملك عن عرشه، ويغدو الجسد بلا تاريخ، والعين بلا معنى.

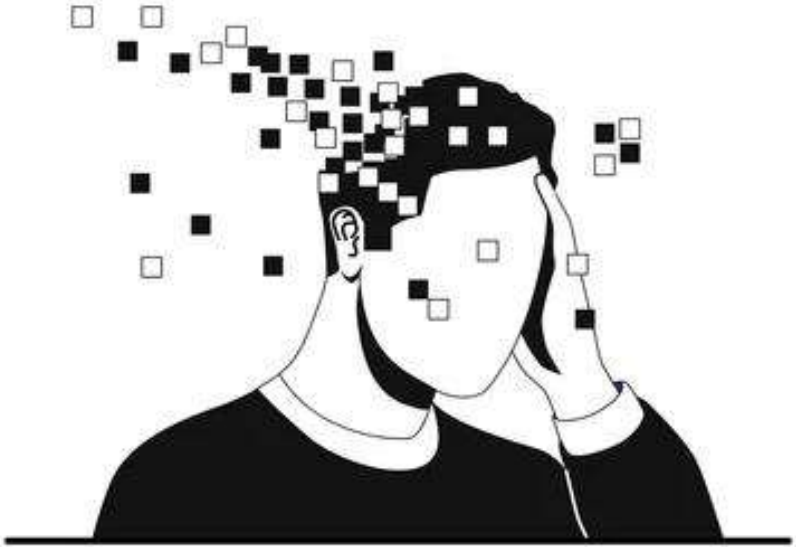

ومن هذا العرش العظمي، **يمد الدماغ خيوطه العصبية إلى كل ركن من أركان المملكة الجسدية**. يأمر **القلب** فيسرّع أو يهدأ، يوقظ **العضلات** فتتحرك، ويعلّم **اليد** كيف تمسك الريشة أو الحجر، وكيف تكتب قصيدة أو تشيّد حضارة. لا عضو يتحرك وحده، ولا خلية تعمل بمعزل عن هذا المركز الآمر. ومع ذلك، فإن حكمه ليس استبدادًا أعمى؛ إنه أقرب إلى قيادة أوركسترا كونية، حيث لكل عضو نغمته، ولكل جهاز إيقاعه، والدماغ هو المايسترو الذي يمنع الضجيج ويصنع الانسجام.

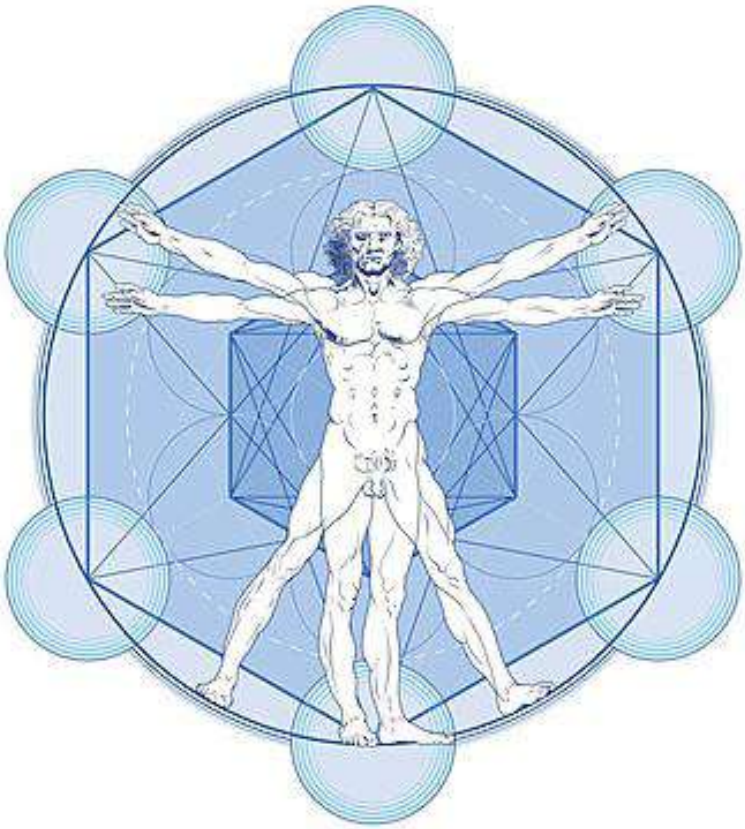

ولم تُذكر بعد كل مهام هذا الملك، فسلطانه يتجاوز التفكير والذاكرة والخيال إلى أدوار أدقّ وأعمق، يعمل فيها بصمتٍ يكاد يكون مقدسًا. هو **حارس التوازن الداخلي**، يراقب حرارة الجسد وسوائل الدم وإيقاع التنفّس دون أن نشعر، ويعيد الضبط في كل لحظة، كملك يسهر ليلًا كي ينام رعيته بسلام. نحن نغفو مطمئنين، بينما هو لا ينام إلا بقدر ما يسمح به لنفسه، يخفف وطأة وعيه لكنه لا يتخلى عن الحراسة.

وهو كذلك **مهندس الزمن الداخلي**؛ به نشعر بمرور الوقت أو تمدده أو انقباضه. لحظة الخطر عنده دهر، وساعة الشوق رمشة عين. يطيل اللحظات حين يلزم التأمل، ويختصرها حين يفيض الفرح، وكأن الزمن نفسه خاضع لإرادته، لا لقوانين الساعات. ومن خلاله نعيش المستقبل قبل أن يأتي، ونندم على الماضي كأنه حاضر، ونبني حياتنا على ما لم يقع بعد.

وهو **صانع اللغة**، لا بوصفها أصواتًا فحسب، بل بوصفها معنى وهوية. في دهاليزه تتحول الفكرة إلى كلمة، والكلمة إلى خطاب، والخطاب إلى حضارة. لولاه لبقي الصوت صدى، والرمز علامة صماء، لكنه يمنح الحروف روحًا، ويعلّم اللسان كيف يكون ترجمانًا لما لا يُرى. به نتفاهم، وبه نختلف، وبه نحفظ تراث الأمم ونورّثه عبر القرون.

وهو أيضًا **مفسّر الإحساس**، يحوّل اهتزاز الهواء إلى موسيقى، وانكسار الضوء إلى ألوان، ولمسة بسيطة إلى حنان أو ألم. العالم لا يدخل إلينا كما هو، بل كما يعيد هو تشكيله. الواقع خام، والدماغ

هو الفنان الذي يمنحه شكله النهائي. لذلك لا يرى اثنان المشهد ذاته، ولا يسمعان النغمة نفسها، فلكل دماغ طريقته الخاصة في تأويل الوجود.

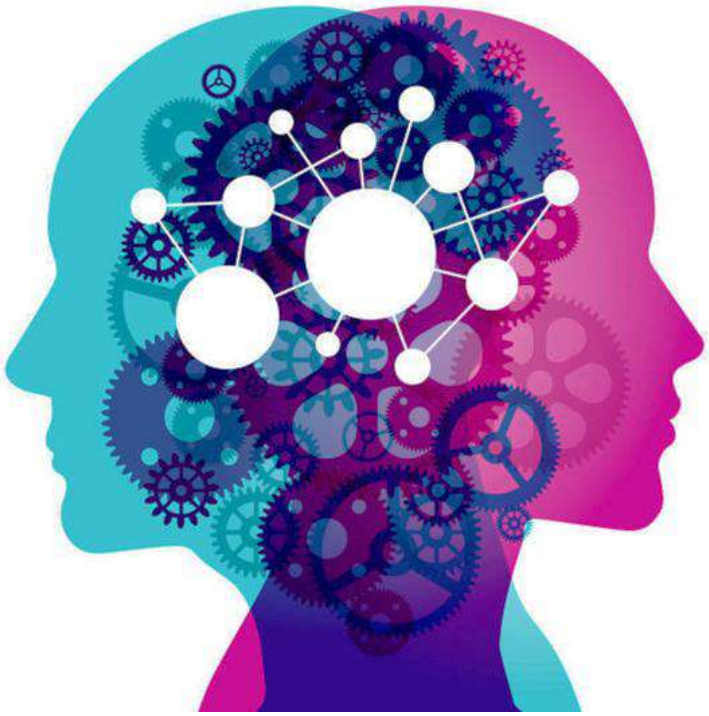

ثم إن هذا الملك يملك **قدرة نادرة على التعلّم وإعادة التشكل**، يغيّر خرائطه الداخلية إذا فُقد طريق، ويخلق مسارات جديدة إذا أُغلقت القديمة. لا يستسلم بسهولة للفقد، ولا يرضى بالعطب النهائي، بل يعاود المحاولة، وكأن فيه عناد الحياة نفسها. في كل تجربة، في كل خطأ، في كل سقوط، يعيد كتابة نفسه، ويضيف طبقة جديدة إلى حكمته.

وهو، فوق كل ذلك، **موطن المعنى**. فيه تتكوّن القيم، وتولد الأسئلة الكبرى، ويتشكل الضمير، ويظهر الإحساس بالخير والشر، بالحق والعدل، بالجمال والقبح. ليس عضوًا بيولوجيًا فحسب، بل مسرحًا للأخلاق، ومحرابًا للتأمل، ومختبرًا للروح وهي تحاول أن تفهم لماذا وُجدت.

لهذا، حين ننظر إلى الدماغ، لا ينبغي أن نراه مجرد كتلة من خلايا، بل مملكة كاملة، وسجلًّا للكون، وتجربة للوجود في أرقى

صورها. هو الملك الذي لا نراه، لكنه يرينا كل شيء، والذي لا ينطق، لكنه يهبنا اللغة، والذي لا يشعر بالألم، لكنه يعلّمنا معنى المعاناة ومعنى الأمل.

أما العجيب في **هذا الملك أنه، رغم صغره النسبي، يختزل الكون بأسره في طياته**. النجوم التي لم نبلغها، والمحيطات التي لم نغص فيها، والعصور التي لم نعشها، كلها تجد موضعًا داخل هذا النسيج الهش. الدماغ لا يحتاج أن يسافر ليعرف، ولا أن يلمس ليصدق؛ يكفيه أن يتأمل، أن يربط، أن يعيد بناء العالم رمزيًا، فكرةً بعد فكرة، وصورةً بعد صورة. الكون الخارجي، بكل اتساعه، يجد نسخة مصغرة منه في هذا الفراغ المظلم داخل الجمجمة.

ولعل أكثر ما يثير الدهشة أن **هذا الملك لا يعرف نفسه معرفة كاملة**. هو الأداة التي بها نسأل، وهو في الوقت ذاته السؤال الأكبر. يحاول أن يفهم ذاته بذاته، أن يحدّ حدوده وهو الذي يرسم الحدود، وأن يفسّر وعيه وهو مصدر الوعي. كلما اقترب من ذاته، ازدادت المسافة غموضًا، وكأن فيه سرًّا أزليًا يأبى الانكشاف الكامل، ليبقى الإنسان دائم السعي، دائم التساؤل.

هكذا يظل الدماغ البشري ملكًا متوَّجًا، لا يصدأ تاجه، ولا يبهت عرشه، ما دام الإنسان يفكر، ويحلم، ويخطئ، ويبدع. وفي كل مرة يظن فيها أنه فهم العالم، يبتسم هذا الملك في صمت، ويفتح تلافيفه على سؤال جديد، ليذكّرنا بأن **أعظم كونٍ نعرفه... ليس فوق رؤوسنا، بل داخلها.**

العقل في عالم الفن

في عوالم الفن، يصبح العقل هو الشخصية والمحور والموضوع، ولا يكتفي الفنان بمحاكاة الواقع أو الطبيعة، بل يغوص في أعماق النفس البشرية، في تلافيف الدماغ، في صخب الفكر والجنون، ليجعل من العقل نفسه لوحة، منحوتة، سيمفونية، أو مشهدًا حيًا على المسرح. الفن هنا ليس مجرد تعبير، بل تأمل فلسفي في ملكية الدماغ لمملكته الداخلية.

لوحات خالدة

في الرسم، تتحول الألوان والخطوط إلى لغة تستحضر غموض العقل. **لوحة خلق آدم لمايكل أنجلو**، على سقف كنيسة سيستين ، يقال عنها أن إنجلو رسم الهيئة المحيطة بالله بشكل يشبه الدماغ البشري، كما لو أنه قصد إيحاء أن الله هو العقل الأعظم ، و أن الإنسان كلما ارتقى بعقله توحد مع الذات الإلهية .

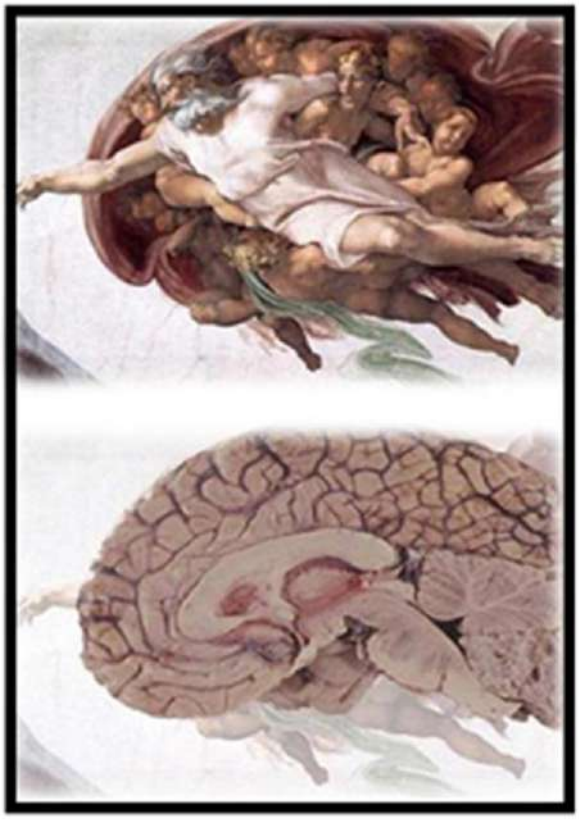

و هناك أيضاَ **لوحة حدود العقل لبول كلي**، لوحة تجريدية، تتناول حدود التفكير والإدراك البشري، حيث تظهر الأشكال والإيقاعات

المرئية كرموز لصراعات الذهن داخل حدود وعيه.

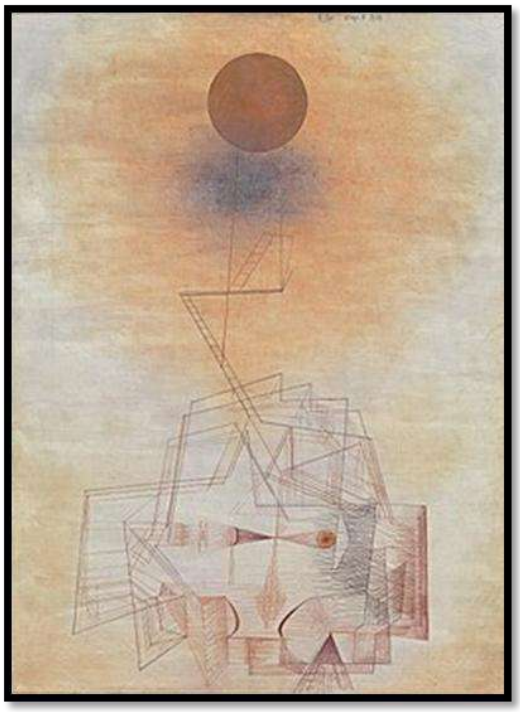

كما أنّ **لوحة المتاهة لويليام كورليك** تصور داخل الجمجمة مقصورات تمثل الذكريات والأفكار، وكأن العقل نفسه متاهة معقدة يحاول الفنان فك أسرارها.

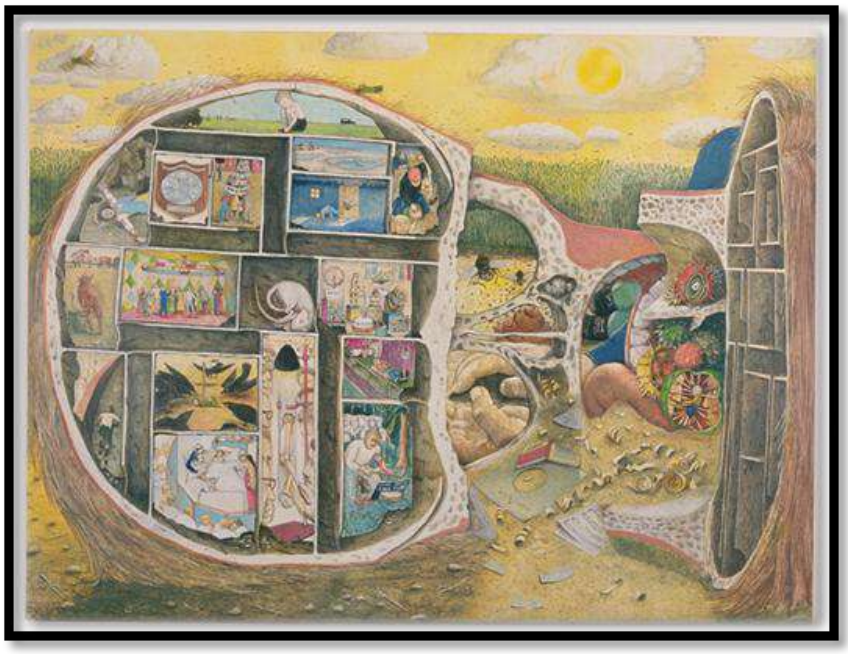

ولوحة **إصرار الذاكرة لسلفادور دالي** تعكس العقل الباطن والحلم واللاوعي، حيث تمثل الساعات الذائبة الزمن والإدراك المتغير في

الذهن البشري.

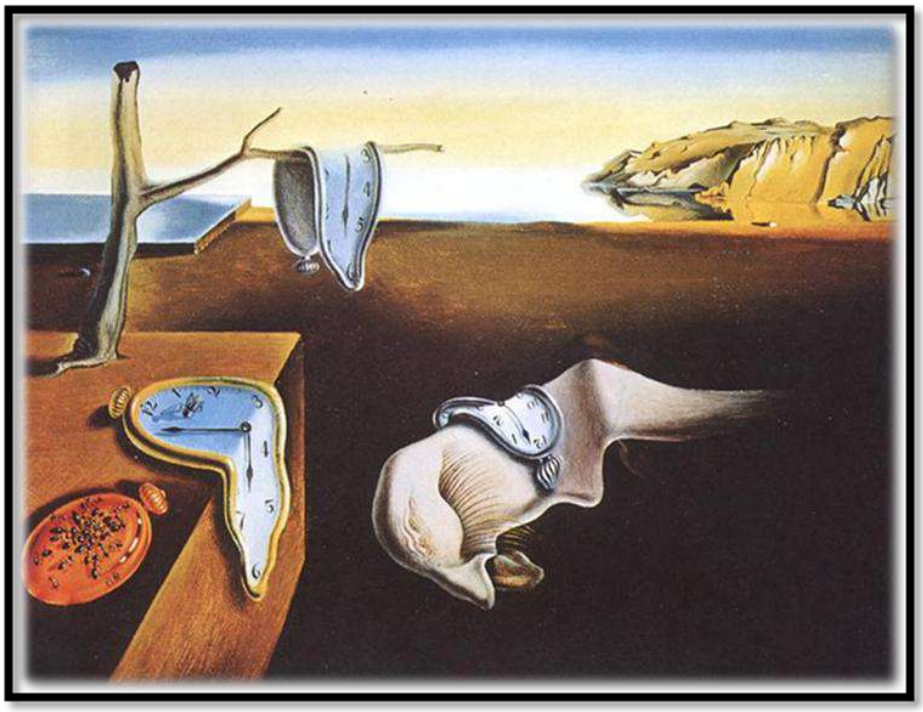

منحوتة العقل

في المنحوتات، يصبح العقل ملموسًا وثلاثي الأبعاد. أعمال **أليكس غراي** تصور الدماغ والوعي والروح بطريقة رمزية وعميقة، مستوحاة من فلسفة الوعي وعلم الأعصاب، فيسافر المشاهد بين الشبكات العصبية والتجربة الداخلية للذات. أعمال **كريس زانتيس** مثل "**مخبّأ في الطيات**" تستخدم النسيج لاستكشاف تعقيدات الدماغ والوعي، بينما أعمال **جيونغ يون** تستعمل خيوط الشعر لصنع تراكيب تتغير مع الهواء، كرمز لاتصال الجسد بالوعي وإدراك الذات.

سمفونية الأعصاب

هناك موسيقى قادرة على استحضار التجربة الذهنية الغامضة. ألبوم **موسيقى للمطارات لبريان إينو**، بموسيقاه التجريبية وإيقاعه البطيء، يخلق حالة صفاء ذهني وتأمل داخلي، وكأنه موسيقى العقلانية التي تهدئ الوعي وتفتح أبواب التأمل. على النقيض سيمفونية **طقوس الربيع لإيغور سترافينسكي** تمثل الانفجار العصبي الداخلي، والاندفاعات النفسية الغامضة، وكأنها انعكاس موسيقي للوعي الغريزي والعقلي.

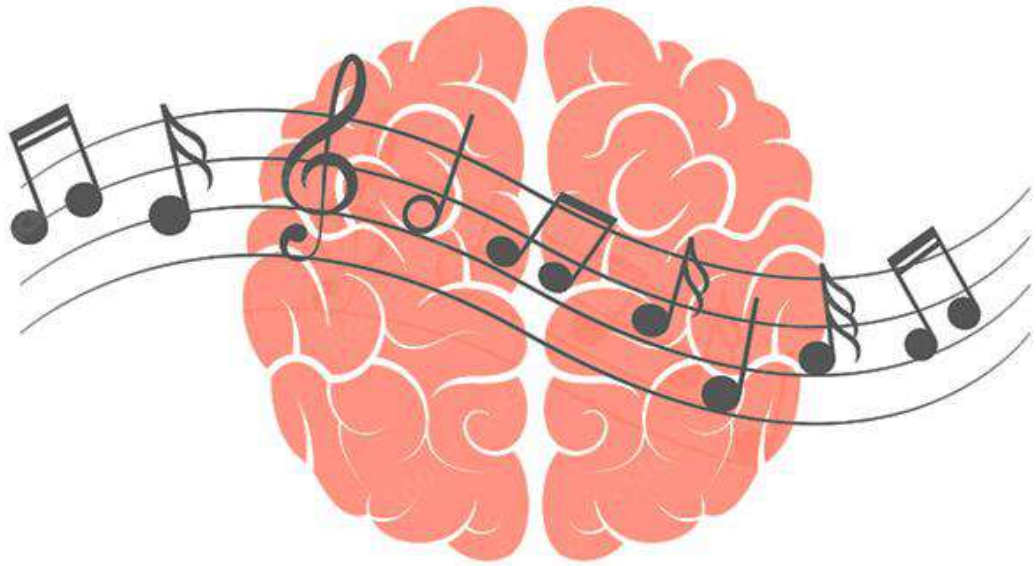

العقل أمام الكاميرا

في السينما، يصبح العقل موضوعًا مباشرًا للتجربة الإنسانية. فيلم **لوسي** يستعرض قدرة الإنسان على توسيع استخدام دماغه إلى أقصى حد، فيكتسب قدرات خارقة وتصبح حواسه ووعيه ممتدًا إلى حدود غير مألوفة. أما فيلم **ليمِتليس** فيتناول عقلًا يكتسب قوة فائقة بعد تناول دواء خاص، ويستعرض كيف يمكن للإنسان استكشاف إمكانيات العقل الكامنة، ويخلق تساؤلات فلسفية حول حدود الإدراك البشري وإمكاناته الغافية. ة هناك أيضاً فلم **بيوتيفول ماينـد** الذي يظهر لك ما يجول داخل دماغ العباقرة و صراعهم مع

الذات و الواقع .

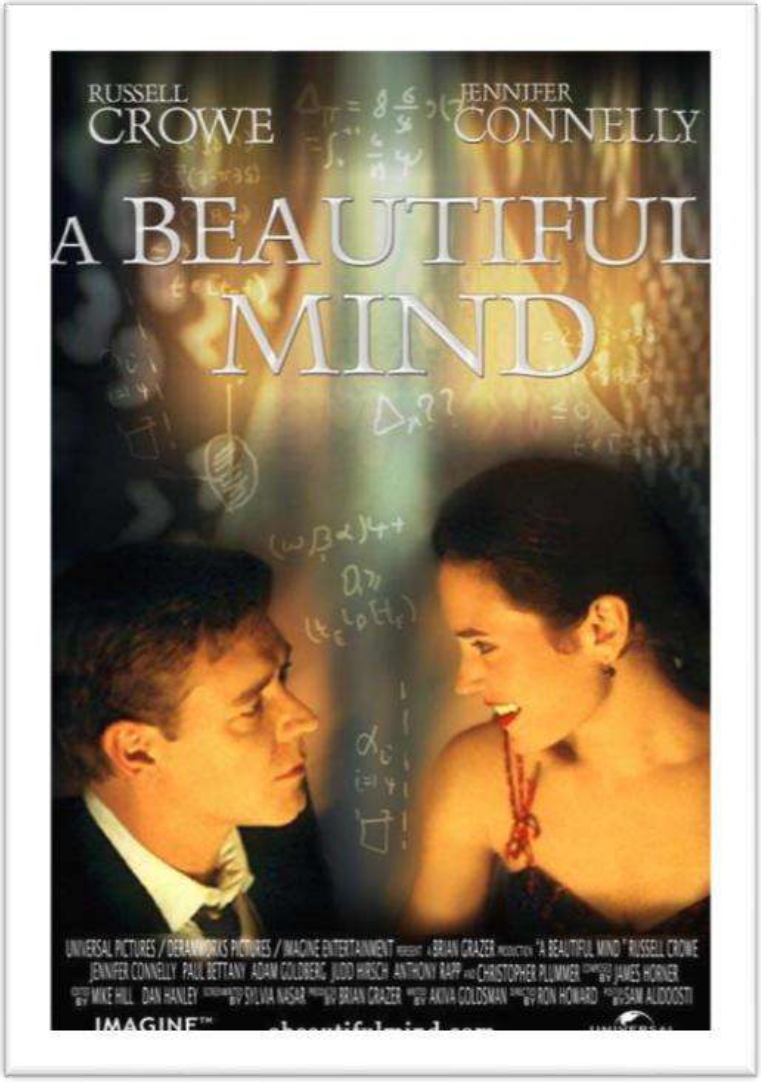

العقل الأديب الذي يكتب سيرته الذاتية

الأدب يغوص بعمق في أسرار العقل والوعي، سواء في الروايات أو الشعر. في الروايات، نجد أعمالًا مثل **زهور لألجيرنون** التي تحكي رحلة عقل نابغة يتحول بتجربة علمية، أو **الجريمة والعقاب لدوسيتوفيسكي**، حيث الصراع النفسي الداخلي لشخصية راسكولنيكوف يعكس تقلبات العقل وأزمات الضمير، و **مدام بوفاري لغوستاف فلوبر** التي تعرض الصراع بين الرغبات والتوقعات العقلية. كذلك روايات **مئة عام من العزلة لغابرييل غارسيا ماركيز** و **الشيخ والبحر لأرنست همنغواي**، تصور

صراعات الوعي والحدود الداخلية للعقل البشري.

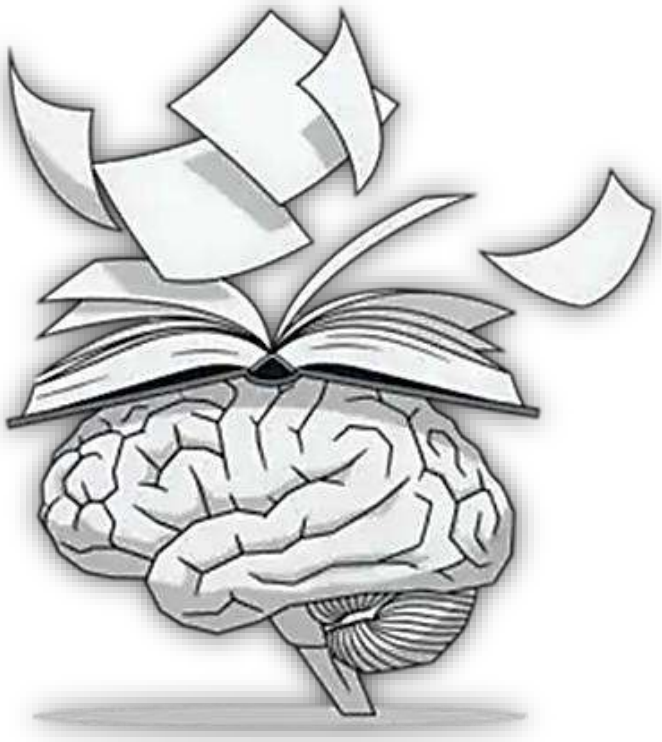

و في الشعر، نجد العديد من الشواهد التي تحدثت عن العقل والعقلاء:

يقول **المتنبي** :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

و يقول **جبران خليل جبران** :

النفس سفينة، و العقل ربانها و شراعها و هي سائرة في بحر هذا العالم

كما قال **الشافعي** :

العقل لا يولد به المرء ، ولكنه يلقح من مجالسة الرجال، ومناظرة الناس

أما **أبو العلاء المعري** فيؤكد :

لا إمام إلا العقل

و **أحمد شوقي** أضاف :

إذا رأيت الهوى في أمةٍ حكم

فأحكم هنالك أنّ العقل قد ذهبَ

و أخيراً و ليس آخراً أبدع **نزار قباني** في إيجاز الوصف بقوله :

ذروة العقل يا حبيبي الجنون

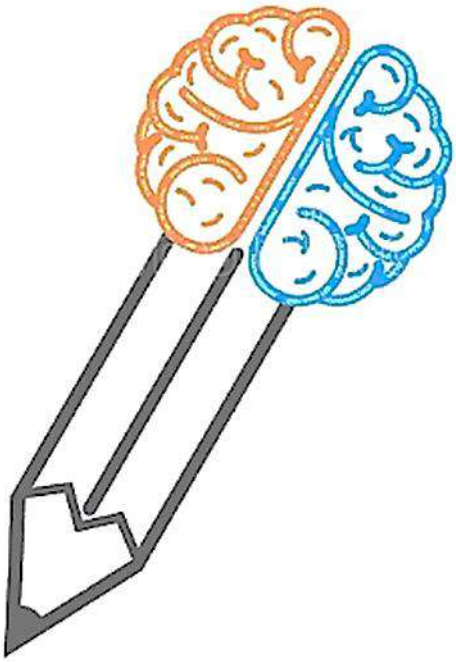

و كل هذه الأبيات تمثل رحلة الشعراء في تصوير الفكر، والتأمل، والحكمة، وتسليط الضوء على قدرات العقل وقواه الداخلية.

إذن الفن الذي يتناول موضوع العقل لا يقتصر على التمثيل التشريحي فقط، بل يستخدم الرمزية والسريالية والتجريد ليضع

المشاهد في حالة تساؤل وتأمل داخلي. الغموض في هذه الأعمال ليس فقط غياب معنى صريح، بل مفتاح لاستحضار تجربة إدراكية شخصية داخل ذهن المتلقي. كل لوحة، منحوتة، مقطوعة موسيقية، فيلم، رواية أو قصيدة، يجسد العقل بطرق متعددة، ليصبح الفنان **مستكشفًا للوعي، والذاكرة، والجنون، والقدرات الخفية للعقل البشري**، في رحلة لا تنتهي من اكتشاف الذات والوجود عندما يضع العقل بين يدي العقل نفسه .

العقل ...

محتوى الكتاب

- رحلة داخل الدماغ
  - العقل بين تلافيف التاريخ
- سافانت
  - الحاسوب الأعظم
- العقل الكوني
  - العقل الباطن
- العقل من منظور الشعوب
  - ملك على عرش عظمي
- العقل في عالم الفن